حكايات من الزمن العربي

مصطفى نبيل

دار الشروق

Bibliotheca Alexandrina
0004917

حكايات من الزمن العربي

الطبعة الأولى
١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
بيروت ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE
القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس 93091 SHROK UN
SHOROUK INTERNATIONAL 316/318 REGENT STREET LONDON W1 UK, TEL 637 2743/4 TELEX SHOROK25779G

مصطفى نبيل

حكايات من الزمن العربي

مأساة أميرة عربيّة

وقصص أخرى

دار الشروق

الطبعة الأولى

١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
بيروت ص.ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ١٧٢١٣ برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE
القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
SHOROUK INTERNATIONAL 316/318 REGENT STREET LONDON W1, UK, TEL 837 2743/4 TELEX SHOROK 267796

المقدمة

خلال جولاتي في العواصم العربية المختلفة، أتابع أحداثها، وأرصد تغيراتها، وأجمع أبعاد دور زعماتها. وقواها السياسية والاجتماعية، أعالج أبعاد هذه الأحداث الجارية ومكانها في المسار التاريخي للأمة العربية. أصادف نوعاً آخر من الأحداث، يقودني إليها مخطوط أو كتاب أو أثر، فيشدني جمع تفاصيله وململمة أطرافه...

فإذا كانت مهنة البحث عن المتاعب، هي الركض وراء الأحداث، فماذا عن الوقائع التاريخية التي ما زالت صفحاتها مطوية رغم غناها بالتجربة والعبرة، ألحت على هذه الوقائع التاريخية، كلما قرأت كتاباً جديداً يشير إليها أو زرت أحد الأماكن التاريخية التي جرت فيها هذه الأحداث، وكنت دائماً ألمح خيطاً يربطها بما نعيشه في هذا العصر، بل وتساهم في كشف خفايا العديد من الوقائع الجارية.

وبقيت هذه الحكايات تنتظر من يتناولها ويكشف خباياها..

جذبني إليها وقائع تمتد على ساحة زمنية خلال القرون الثلاثة

الماضية، في مرحلة تندر حولها الدراسات والأبحاث، مرحلة شهدت الدخول الاستعماري وهزيمة الشرق أمام الغرب، وفيها تزاوجت مواقف البطولة مع وقائع الهزائم، ولم تخل - في ظل السقوط - من مشاهد نبيله، وأعمال عظيمة، وأفكار جديدة، ومحاولات جسورة، وهي تبين العقبات التي اعترضت طريق التقدم، وأسبابها، وما كان منها مؤقتاً، وما بقي منها معنا حتى اليوم، وتكشف ما كان نتيجة الاهمال وما فرض علينا فرضاً. .

كما أعترف أنه جذبني إلى هذه الحكايات أن كلٍ منها حكاية شيقة تحمل كل عناصر الإثارة والدراما البشرية. حتى تكاد كل منها تصلح فيلماً سينمائياً غنياً بما هو أكثر من التسلية وقضاء الوقت.

ويربطها جميعاً خيط واحد، في تلك المرحلة التي شهدت أفول حضارة الشرق ونهوض الغرب، مرحلة عصر النهضة والكشوف الجغرافية والثورة الصناعية، التي انتهت بهيمنة حضارة الغرب على العالم. .

فكيف واجه الشرق هذه التطورات. .؟ وكيف نجح الفرنجه في فرض سيطرتهم. .؟ تجد الإجابة من خلال حكايات واقعية واضحة الدلالة وبعيداً عن التحليلات التي كثيراً ما تزيد الأمر الواضح غموضاً. . !

ومن حق القارىء ان يسأل. . لماذا هذه الوقائع، وتلك الحكايات بالذات. .؟ وهي ليست أهم الحوادث، وليست

أخطرها . . ؟ ولكن لكل منها مغزى خاص، يرصد جانباً من الصراع الذي يدور بين الشرق والغرب، ويلقي الضوء على عناصر الضعف والقصور، هذا الصراع وذلك القصور الذي ما زال في كثير من جوانبه قائماً حتى اليوم . .

وقد بدأت بالأقرب وانتقلت إلى الأبعد تاريخياً . .

ويقدم الشريف أحمد الريسوني نموذجاً يتكرر، للزعامة التي لا ينقصها النوايا الطيبة، ولا الشجاعة التي تصل إلى حد التهور، ولكنه يفتقد أهم عناصر النجاح، إدراك ما يجري في العالم ومعرفة موازين القوى التي تحكمه، فانتهت حياته مغامراً مدحوراً . .

أما اشتراك مصر في حرب المكسيك، فهو يقدم درساً بالغ الدلاله، يؤكد استحالة التحالف بين الأقوياء والضعفاء، وأن التحالف لا يكون إلا بين الأنداد، فلم يؤدي تحالف الأقوياء والضعفاء، سوى أن يتحول الضعفاء وقوداً لصالح الأقوياء، ولا يحقق أيضاً حتى حده الأدنى ويجنب الضعفاء شرور الأقوياء، فبعد تحالف الخديوي إسماعيل مع الفرنسيين وارسال قواته في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل، تآمر الفرنسيون على خلعه . . !

وتكاد تكون مأساة الأميرة العربية، نموذجاً مجسداً للصراع بين الشرق والغرب داخل جوانح امرأة مشبوبة العاطفة، فبعد أن تخلت عن كل ما يرمز إليه الشرق اسمها ودينها، انتهى بها الحال في وحدة قاتلة في أصقاع أوروبا . . !

وتقدم أول معاهدة عربية أمريكية، بين عمان والولايات المتحدة - التي ترويها قصة الباخرة «سلطانه» - من الذي استفاد من هذه العلاقات. . ؟ وتكشف أنها لم تكن سوى خطوة لتحقيق الهدف الأمريكي في نزوح الثروة إليها، وهو الهدف الامريكي المستمر حتى اليوم. .

ولم تؤدِّ العلاقات التي قامت سواء بين الخديوي إسماعيل وفرنسا، أو بين السلطان سعيد والولايات المتحدة إلا للخسارة وفرض السيطرة الغربية. . !

أما مخطوط لطف الله جحاف، فيؤكد ما يحمله التضامن العربي والإسلامي من طاقة ويظهر مكان مصر ومكانتها، مكانة القلب من الجسد، فعندما تعرضت مصر للغزو الفرنسي اهتز الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، وعملت كل الأطراف على المساهمة في رفع الخطر عن القلب، وصدق المثل اليمني. . «إذا احتربت (حاربت) مصر، تغبرت لحى اليمن. . » والمثل الشامي. . «إذا فاض النيل ترطبت الشام. . ». وما قدمته الجزيرة العربية أيامها يؤكد أن السياج الحقيقي للمنطقة العربية، والقوة الأصلية فيه، هو التضامن العربي والإسلامي، وأنه القوة الوحيدة - رغم التجارب المريرة - التي ما زالت تنتظر من يفجرها وينظمها. . .

ويكشف كتاب البديري الحلاق، أن الشرق كان في ظل الحكم العثماني معزولاً تماماً عن العالم. فإذا كانت الدولة العثمانية

قد دافعت عن الشرق فترة طويلة، إلا أن جمودها والنظم التي فرضتها لعبت دوراً رئيسياً في ضعف الشرق في مواجهة الغرب.

ويبين كتاب «رحلة إلى الشرق» الذي كتبه كريستين نيبور، كيف نجح الغرب في إجهاض بشائر النهضة التي كان يزخر بها المجتمع العربي في مصر، وينقل البدايات الواعدة في الصناعة والفن والفكر ومظاهر الحياة المختلفة، والتي رآها أمامه والتي تتناول قيم الشرق وأفكاره، فكانت أفكار مثل الحرية وحقوق الإنسان قائمة قبل دخول جحافل الغزاة الأوروبيين.

وأخيراً تقدم رحلة السفير المغربي ابن عثمان المكناسي إلى أسبانيا تفسيراً لعزوف الشرق عن الاستفادة من التقدم العلمي، بسبب ما شهدته العلاقات بين الشرق والغرب من صراع وتوتر، مما دفع الشرق إلى الاسترابه وايثار السلامة، وحال دون الاستجابة للصيحات المطالبة بنقل المعرفة الغربية تجدد هذا الصراع، ولم تعد الحياة الفكرية كما كانت زاخرة بكل ما أنتجه العقل البشري، وحان الوقت لتكون المهمة الأولى في الشرق أن نملك ناصية المعرفة والعلم، فهذا هو طريق الخلاص. .

وأؤكد أخيراً. . أنه لا يفسر التحولات التاريخية حكاية أو مجموعة حكايات، مهما كانت خطورتها، فكل حدث تسبقه مقدمات طويلة، والتاريخ لا يكتب مرة واحدة ولكن يضاف إليه كلما ظهرت معلومه جديدة أو كان يعالج بنظرة جديدة .

وما تقدمه هذه الحكايات لا يزيد عن نظرة خاطفة لأحداث ما زالت تنتظر من يكشف عن كل جوانبها . .

إنه دعوة صادقة إلى إعادة قراءة التاريخ العربي . .

الشريف أحمد الريسوني
«روبين هود» المغرب

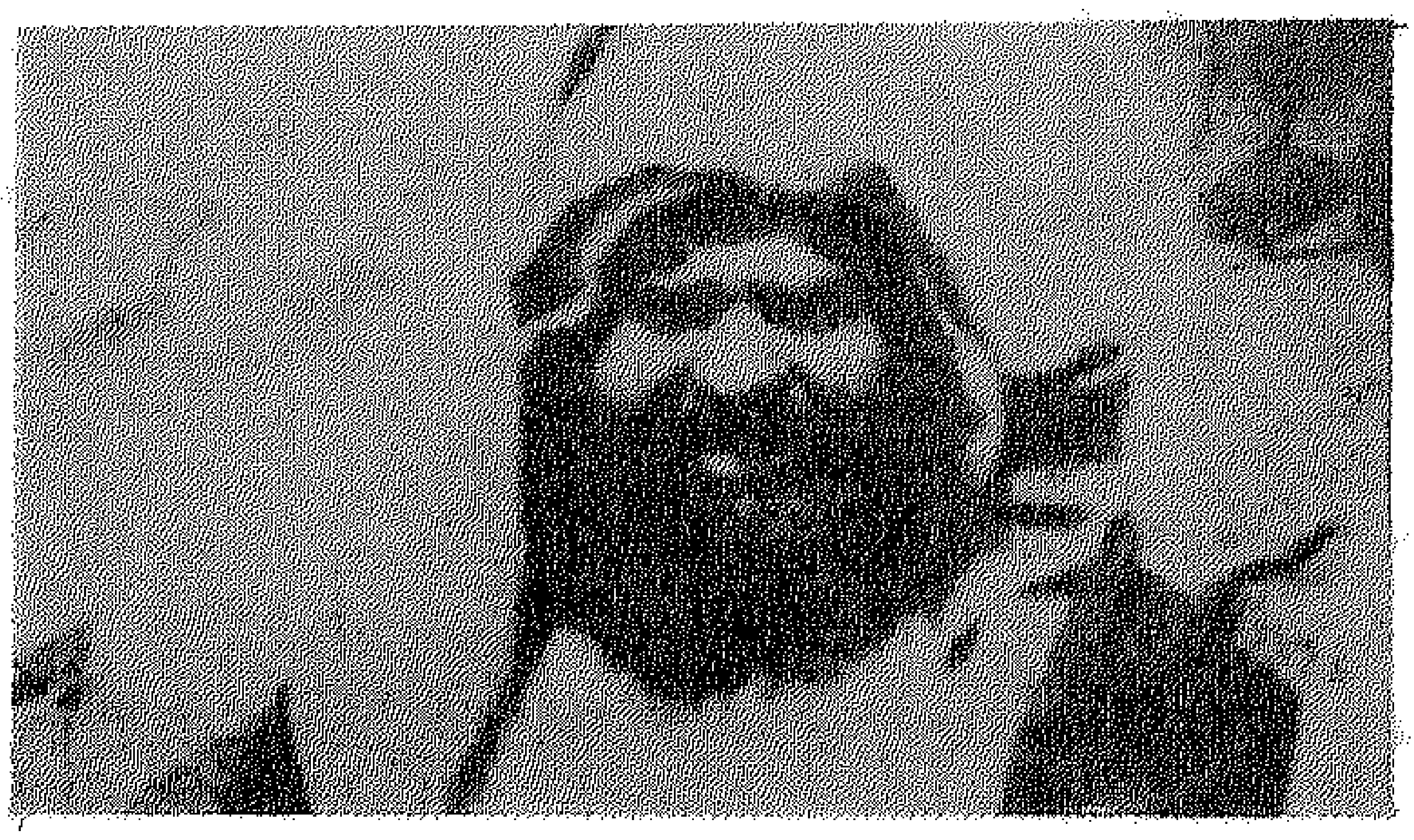

«الصبر هو الشيء الوحيد الذي بقي لنا، كنا يوماً أمة عظيمة، واليوم الغرب في كامل عنفوانه، ولكنكم تبددون قوتكم، وسريعاً ما سنسترد مجدنا السابق

الشريف الريسوني إلى روزيتا فوربز

الشريف أحمد الريسوني، شخصية أسطورية ظهرت في مطلع هذا القرن، واختلف حوله الناس. هل هو قاطع طريق.. أم زعيم وطني يقاوم الغزاة؟

ومصدر هذا «الاختلاف» حياته الحافلة فقد انتقل من السجن إلى الحكم، ومن قتال الأجانب إلى التحالف معهم.. وكان أول من أخذ أحد الدبلوماسيين الامريكيين «رهينة»..

قالت عنه الصحف الغربية: انه روبين هود المغرب.!

وروت قصة حياته الكاتبة روزيتا فوربز في كتابها «سلطان الجبل» بعد أن قابلته في خيمته فوق أحد قمم جبال الأطلس..

* * *

وأهمية حكاية الريسوني أنها تروي فصلاً هاماً من الحياة السياسية في المغرب، في أوج مرحلة الهجوم الاستعماري والتآمر الدولي على البلدان العربية، وتلقي الضوء على المقاومة العنيدة والمستمرة للشعب المغربي، وتطور أساليب كفاحه، عندما كان الميزان الدولي إلى جانب الدول الاستعمارية . .

وقد بزغ نجم الريسوني في وقت تهاوى فيه عالم قديم بكل قيمه ومفاهيمه وأسلحته أمام الغزو الاوروبي، وهذا هو الوقت الملائم ـ عادة ـ لظهور المغامرين التي تكون حركتهم هي رد الفعل التلقائي على العسف والقهر . .

وفي حكايته شبه كبير بـ قصة «الخط » الذي حركه الظلم فخرج إلى الجبل في صعيد مصر. فكما تحرك الريسوني في بداية حياته لانقاذ امرأة اعتدي عليها، تحرك فيما بعد في مواجهة أولئك الذين استباحوا بلاده . .

وغالباً ما يصل رد الفعل المجرد من الفكر بصاحبه إلى «المغامرة» . !

بدأ حياته في العشرين من عمره وفي جبال المغرب ووديانها، نهاباً . . وهاباً، يأخذ من القادرين ويعطي المحتاجين ثم تحول إلى فارس يقود القبائل الأشداء لقتال الغزاة، ولم تكن وسائل الريسوني في مستوى أهدافه، ولكن أي منصف لا بد أن يلاحظ أن ما قام به

كان المقدمة الطبيعية للثورة التي أشعلها الزعيم عبد الكريم الخطابي في الريف في ذات المناطق التي شهدت حرب الريسوني . .

«ومأساته» كانت في نهايته، عندما وافته المنية وهو أسير لدى «الخطابي» بعد ان تخلت عنه القبائل عندما تحالف مع الغزاة . ! أولئك الذي قضى كل عمره في مقاومتهم وكان قد تصور أن الدهاء وحده يكفي لسد الثغرة الواسعة بين أسلحته البدائية وبين أسلحة الأجانب من عتاد وأسلحة دمار مختلفة . .

ولنبدأ القصة من أولها . .

دقت أجهزة التيكرز في ١٨ مايو عام ١٩٠٤ معلنة خطف القنصل الأمريكي في طنجة ايون برديكاريس، وأعلنت ان الذي أخذه رهينة هو الشريف الريسوني، وتساءلت الصحف، من هو الريسوني . . وما هي أهدافه . .؟ وسرعان ما أرسل الرئيس الامريكي تيودور روزفلت سبع مدرعات حربية إلى طنجة، وطلب من سلطان المغرب الاعتذار، وألزمه بدفع الفدية والتي حددها الريسوني بمبلغ ٧٠ ألف دولار، كما أعلن الرئيس الامريكي شروطه : «برديكاريس حياً أو الريسوني ميتاً . .» وبعد خمسة أسابيع من التوتر دفع السلطان المبلغ صاغراً إلى الريسوني، وأفرج عن القنصل الذي أخذ يتحدث عن الريسوني «كعربي» شريف المحتد، كريم الأخلاق . .

وتحكى الوثائق المغربية التي اطلعت عليها أطرافاً من هذه

الواقعة ضمن الوثائق الملكية وتتضمن رسالة من مولاي عبد العزيز إلى نائبه محمد الطريس، حول الواقعة وهذه هي كلمات السلطان: «بلغ شريف علمنا أن الفاسد الريسوني جمع لفاً من حزبه الفاسد، وهجم بهم من دار التاجر باردي كريس (المركاني) التي بالجبل الكبير وذهب به مقبوضاً هو ومن معه ممن وجدوا بالدار، ووقع لنا بذلك تأثر عظيم بلغ منا كل مبلغ، وعليه فنأمرك تتلاقى (بباشدوري النجليز ـ الانجليز ـ والمركان ـ الامريكان ـ) وتقرر لهما ما حصل لجنابنا الشريف من غاية التأسف على هذا الحادث وتتفاوض معهما على الوجه الموصل لاستخلاص الأشخاص المقبوض عليهم، وتقديمه قبل كل منهم، وتساعدهما على كل ما يوصل لذلك وحتى إن دعت الضرورة لإعطاء شيء من الدراهم في فكاكهم واسترجاعهم فالزم الامناء تنفيذها ودفعهم على يدك فوراً . . » (هكذا).

ومرة أخرى يبعث السلطان رسالة أخرى إلى الطريس يقول فيها: «تصلك سبعين ألف ريال لتصرفها وتأخذ منها ما وقع الفصال، وأما العامل القائد عبد السلام بن عبد الصادق فها كتابنا الشريف بعزله، أما المساجين الذي يدعي الريسوني أنهم عزابته، فلا بأس بمساعدته» أي يزعن لكل مطالب الريسوني!

كما توجد ضمن هذه الوثائق رسالة تهديد من السفير البريطاني نكلسون وجه كلماتها إلى المولاي عبد العزيز وجاء فيها:

«نريد أن نخبركم بأنكم تتحملون المسئولية إذا لم يفرج عن الرهائن فوراً» . .

وقد تم إطلاق سراح القنصل الأمريكي وصهره فارلي الانجليزي يوم ٢٥ يونيو سنة ١٩٠٤ . وحدثت هذه الواقعة في قمة الصراع الاستعماري الذي أدى إلى الاتفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا، والذي أطلقت فيه فرنسا يد بريطانيا في مصر وأطلقت بريطانيا يد فرنسا في المغرب . !

ولكن ماذا كانت أهداف الريسوني من أول عملية خطف رهائن دبلوماسيين، لقد أعلن أنه يطلب المال الأمريكي من أجل إنفاقه على بناء حركته، كما أعلن هدفه بالضغط على الحكومة الأمريكية لتمنع الدول الأوروبية من المضي في خططها ضد المغرب ولم ينس أن يقول . . «ان هذا العمل سيطرح قضية المغرب على المسرح العالمي ويحطم حصار الصمت المضروب حول معاناة الشعب في المغرب . .» .

وقد سيطر على الريسوني شعور جارف بأن القدر قد أعده لدور خاص لانقاذ بلده من الغزو الأجنبي، فهو شريف يعود نسبه إلى النبي عليه السلام، ويتمتع بالجسارة والإقدام . .

وبدأ على هذا النحو رحلة القدر، وألف جيشاً من القبائل الأشداء وأخذ يأخذ الأثرياء «رهائن» وأخذت خطواته تتسع ومطامحه تزداد . .

وأصبحت عملية القنصل الامريكي مجرد بداية دور سياسي استمر زهاء خمسة عشر عاماً . .

* * *

وهناك بداية تسبق واقعة الرهائن عندما أصدر السلطان عبد العزيز أمراً بالافراج عن الريسوني من سجن «الصويره»، بعد أن قضى ثلاثة أعوام مكبلًا بالحديد، وكان عمر الريسوني وقتها ـ عام ١٨٩٤ ـ نحو أربعين عاماً، يقول . . «انه دخل السجن عندما كان يحقق العدالة، فيأخذ من القادرين ويعطي للمحتاجين . . ».

ويقولون عنه . . «انه قاطع طريق على الطريقة البدوية أي نهاب . . وهاب . . !

ويروي لروزيتا فوربز البداية بقوله : «جاءتني امرأة تشكو سرقة بيتها وقتل زوجها وولدها، فأركبتها فرساً واندفعت مع رجالي نبحث عن القتلة واللصوص، وادركناهم عند أحد الأودية فقتلناهم جميعاً، ورددنا للمرأة ما سرق منها . . وعلمتني تلك المرأة أن المعرفة ليست في الكتب وحدها، بل فيما تقوله قبيلة بني مصور ـ قبيلة أمي ـ فابن القبيلة يولد على السرج والبندقية في يده . . »

وسرعان ما تطور نشاطه، فأصبح يشن الغارات على القرى، يؤدب الظالمين وينهب أموال المستغلين ويوزع الأموال على أبناء

القبائل جميعاً فهل كان لهذا العمل بعد ثالث، هو استمرار علاقة العداء بين البدو والحضر. ؟! على أية حال، فقد سار في الناس أن ما هذا بقاطع طريق بل قائد رجال، وفارس فرسان وأصبح زعيماً لكل القبائل. وانضم تحت لوائه كثيرون من بني عروس وبني مصور، وغدى زعيماً يشتهي النزال. .

ويمضي الريسوني واصفاً هذه المرحلة من حياته بقوله: «كانت عساكر مولاي الحسن تتردد في محاربتنا، وكان بعضهم وهم فقراء جياع، يبيعون سلاحهم وذخيرتهم وحتى بذاتهم العسكرية. . ». فيرتديها الريسوني ورحاله ويدخلون القرى ويحققون عدالة «الريسوني» باسم «السلطان». !

وعندما فشلت محاولات السلطان في القبض على الريسوني لجأ السلطان إلى الحيلة فقدم معتمده في طنجة الوعود للريسوني ودعاه إلى طنجة، وذهب إلى طنجة ونزل في دار المعتمد، وألقى القبض عليه في دار الضيافة وارسل إلى السجن مكبلاً بالحديد يقول: «ظل الحديد في قدمي ويدي وعلى عنقي ثلاثة أعوام. . ».

* * *

وبعد الأفراج عنه أصبح سرجه وبندقيته للوطن، وكان لديه اعتقاد بأن «البركة» تظلله وعادت القبائل لتختاره قائداً، فطريقه سبيل الله، وكان الشريف من ناحيته يوزع الأموال بسخاء على

القبائل الموالية له، أو على القبائل التي توشك على الولاء. .

ومرة أخرى جاءه رسول السلطان إلى الجبل يعرض عليه الأمان لقاء الطاعة والولاء، فتذكر تجربته الأولى وأسرع في الاطاحة برأسه، وتكررت مساعي السلطان التي انتهت بتعيينه حاكماً على طنجة، وكانت طنجة في هذا الوقت مركزاً للتآمر والدسائس الأوروبية، ولم يكن أحد من الأجانب يأمن على نفسه حتى أن يخرج للصيد في ضواحي المدينة. . وأعاد الريسوني الأمن والنظام إلى المدينة وضواحيها، وأمن الطريق بين طنجة وتطوان، ومن غيره يقدر على هذه المهمة، وروع الأجانب ما شاهدوه بين وقت وآخر من رؤوس معلقة في السوق، فأخذوا يصرخون ويحتجون إلى قناصلهم، ويحتج القناصل بدورهم إلى دولهم ويرد الريسوني على هذه الاحتجاجات. . هذا عدلنا. ! واقتربت عدالة الريسوني من رقاب الأجانب أنفسهم الذين قدموا مع حلم الكسب السريع بالنصب وتنظيم العصابات، وأصبح عدل الريسوني عقبة كأداء أمام المخططات الدولية التي تهدف إلى الاستيلاء على المدينة وعقد القناصل اجتماعاً وقرروا الاحتجاج على الريسوني لدى السلطان وعلى «عدله القاسي» الذي يريد ان ينفذه على الاوروبيين. . !

وكانت الدول الاستعمارية في صراع حاد على طنجة التي تشرف على مضيق جبل طارق، وعقد مؤتمر الجزيرة، وقررت الدول المجتمعة المطالبة بعزل الريسوني من منصبه.

واهتمت الوثائق الأسبانية اهتماماً واضحاً بالريسوني وحركته، وهي حافلة بالوثائق التي تحكي من وجهة نظر أسبانيا عن أعمال الريسوني. . فمثلاً تهتم باللقاء الذي جرى بين الريسوني والامبراطور الألماني غليوم الثاني في طنجة عام ١٩٠٥، ويذكر الوزير المفوض الاسباني إلى حكومته «أنه أصبح من المؤكد أن الريسوني وجماعة من أعيان طنجة المعروفون بعدائهم لفرنسا قد التقوا بالامبراطور. . ».

ونجد وثيقة أخرى بتاريخ ١٤/١١/١٩٠٦ يذكر فيها الوزير المفوض. «ان الريسوني يقوم بدعاية واسعة ضد القرار الذي أصدره مؤتمر الجزيرة بخصوص تكوين فرقة من الشرطة، ويعمل على عدم تنفيذها ليس في طنجة وحدها بل في جميع الموانىء المغربية. . ».

«وهذا أدى إلى أن ترى الدول المشاركة في مؤتمر الجزيرة ضرورة القضاء على الريسوني، أو إضعاف نفوذه بطنجة إذا أرادت تطبيق قرارات مؤتمر الجزيرة. . ! ووصلت المدرعات لتنفيذ ما قرره المؤتمر، والذي يتضمن تدويل طنجة. .

وانتهى فصل جديد من قصة الريسوني، الذي عاد إلى بلدته «زينة» وأخذ يحشد القبائل من جديد، ويجدد الثورة المسلحة على الغزاة، ودامت هذه الثورة سنتين تمكن خلالها من الاستيلاء على مدينة طنجة وقتل القائد العسكري بها.

ماكلين في الأسر

وخلال هذه الفترة تزايد عدد الأجانب الذين يقدمون خدماتهم «البريئة» للسلطان. ومن هؤلاء والتر هاريس مراسل صحيفة التايمز صديق السلطان، والسير هنري ماكلين الذي اختاره مستشاراً عسكرياً له والذي اقترح على السلطان اللجوء إلى الحيلة في مواجهة الريسوني، والتقى ماكلين مع الريسوني في مكان قريب من طنجة وتعهد له ماكلين باسم السلطان بالامان إذا رافقه إلى فاس، ورفض الريسوني إلا إذا جاءه خطاب من السلطان، وبالفعل كتب السلطان خطاباً يؤمن فيه الشريف ويعده بمنصب كبير وإعادة أملاكه إليه، وفي نفس الوقت كتب خطاباً آخر إلى قائد جيشه في جبال بني عروس يطلب منه أن يزور الريسوني زيارة ودية ثم يلقي القبض عليه، ووضع كاتب القصر خطاب الريسوني في غلاف القائد، وكتاب القائد في غلاف الريسوني وها هي «البركة» التي يؤمن بها الريسوني تظهر من جديد، وتنقذه من الحيلة المدبرة ضده. .

وبعد قراءة الريسوني خطاب السلطان واكتشافه الخدعة، أخذ مبعوث السلطان هنري ماكلين رهينة واعطاه كتاب السلطان وقال له: «أنت ضيفنا إلى أن ترغب بريطانيا في عودتك إليها. ! «وصارح الشريف أسيره» الحكومة البريطانية غنية، ومقامك رفيع، اكتب إلى حكومتك أن الريسوني لا يقبل أقل من خمسة وعشرين الف جنيهاً ذهباً. . »

وتدخلت الحكومة البريطانية مهددة ومنذرة: فأذعن السلطان ودفع عشرة آلاف جنيه نقداً، وتعهد بدفع الباقي عند ميسره. . !

في اللعبة الدولية

قبض الريسوني عشرة آلاف جنيه ذهباً من السفير البريطاني في طنجة في مقابل الافراج عن هنري ماكلين، وارتكب خطأه الأول عندما بدأت قدمه تنزلق في اللعبة الدولية، وهي اللعبة التي عادة يخسرها الأضعف وطلب من السفير الحماية البريطانية وكان كل مغربي من حقه أن يلجأ إلى دولة أجنبية طالباً حمايتها وكانت الدول تمنح حمايتها خدمة لاهدافها وأصبح «سلطان الجبل» من رعايا بريطانيا. !

وأخذت أحوال المغرب تزداد اضطراباً، ونصب السلطان عبد الحفيظ بدل السلطان عبد العزيز، واستبشر المغاربة بأنه سيعمل على مقاومة الأجانب، وذهب إلى الريسوني، وافضى إليه السلطان الجديد بهمومه، قال: «الأجانب يطمعون في بلادنا. ويسعون للاستيلاء عليها، ويجب أن يتعاون كل أبناء المغرب للدفاع عنها، وقال الريسوني: «والله لو كان هذا هو موقف السلطان عبد العزيز ما قاتلته، ولو دعا للجهاد لكنت أول من لبى الدعوة. . » وتم الاتفاق بين الريسوني والسلطان على أن يتخلى الريسوني عن الحماية البريطانية، وأن يتنازل عن ما تبقى من فدية ماكلين، وأقسم أن يخلص الولاء للسلطان ويساعده في دفع خطر

الأجانب، وعندما علم أن السلطان في حاجة إلى المال أرسل إليه الريسوني ثلاثمائة ألف دورو.

ولم تستمر الحياة صافية طويلاً للريسوني، فقد بدأ تنفيذ خطط اقتسام المغرب بين فرنسا واسبانيا، وفرض الحماية على المغرب، وسقط شمال المغرب عام ١٩١٢ غنيمة في أيدي الاسبان، وانطلقت القوات الاسبانية من سبتة ومليليه لتستولي على المنطقة المخصصة لها ـ ما زالت كل من سبتة وجزيرة حجر بادس وجزيرة الحسيمة ومليليه والجزر الجعفرية تحت الاحتلال الاسباني حتى الآن ـ وثارت القبائل على هذا الغزو، وكانت تنتظر الكلمة للانطلاق، واطلقها الريسوني، وبدأ القتال، ولحقت خسائر كبيرة بالاسبان حتى عجزت قواتهم عن تخطي أسوار المدن، ووصف المغرب في هذا الوقت.. «بأنه قبر الشباب الأسباني والبئر التي تبتلع ثروة اسبانيا..»

وعندما عقدت معاهدة الحماية بين فرنسا والسلطان عام ١٩١٢ أحل الريسوني نفسه من القسم الذي أقسمه أمام السلطان واستمر القتال بين قوات الريسوني والاسبان ووجد الاسبان في الريسوني زعيماً له نفوذه على القبائل لا ينازع، واختار الريسوني ـ للمرة الثانية ـ الحيلة والمراوغة، واتفق مع الاسبان على أن تكون لقواته الجبال وللاسبان المدن ولكن لا بد للاهداف المتضاربة أن تتصادم في النهاية، فرغم استقلاله واقعياً في المنطقة الشمالية أراد

الجنرال الاسباني أن يرسل إلى أصيلة أحد الضباط لمراقبة الجمارك، ورفض الريسوني قائلاً: «اني ممثل السلطان لا ممثل الجنرال الاسباني»، وكان يسعى للحيلولة دون وجود الاسبان في أصيلة حتى لا يقول المسلمون.. انه انقاد للأجانب أو تساهل معهم.. ولكن هذه السياسة الواقعية التي يتبعها أخذت تنال من زعامته للجبل..

وتكررت الازمات بين الاسبان وسلطان الجبل، فبعد أن وعدته اسبانيا أن يكون «الخليفة الأول» على المناطق الأسبانية في المغرب عادت وتراجعت خوفاً من أن يشق عصا الطاعة، وكان سجل أعماله يحول دون تعيينه وقد اختار متأخراً أن يخرج من أصيله ويعود إلى الجبل وعاد إلى حصنه في زينة، وأخذ يعد العدة لقتال الاسبان، بعد ان أرسلت إليه القبائل تقول: «سلاحنا أكله الصدأ، وأيدينا ملت الانتظار.»

ولم تتوقف الحكومة الاسبانية عن محاولة استرضائه وقد عقد اجتماع في طنجة على أمل حل الخلافات القائمة ودار الحوار التالي الذي يكشف طبيعة العلاقات بين أسبانيا والريسوني:

الجنرال الاسباني: «لقد نكثت العهد».

الشريف الريسوني: «لو قال هذا الكلام سواك ما عاش بعدها».

الجنرال: «ولكنك تحرض القبائل علينا».

الريسوني: «بل لقد ردعتهم عنكم».

الجنرال: «ضجت البلاد من أعمالكم البربرية».

الريسوني: «هذه دعوة للحرب».

قنصل العرائش الاسباني: «الصبر، الصبر، أرجوكم».

الجنرال: «هو قاطع طريق، صبرت عليه طويلاً».

الريسوني: «أنا أقوى منك، أنت عاصفة وأنا البحر، العاصفة تمضي والبحر يبقى»، وهم بمغادرة المكان.

السفير الاسباني: «أرجو الانتظار فلدي هدية لك من رئيس وزراء أسبانيا».

الريسوني: «ليس هذا وقت هدايا فأبناء بلادي لن يحسبوها هدية».

السفير: «السجاد قديم جميل، سيروقكم كثيراً».

الريسوني: (بتهكم): «يقال: ان العدل أعمى وكان لي بيت في أصيله استوليتم عليه، وكان لي أثاث وفرش وتصرفتم به وأسرتم عائلتي وتقدمون الآن بعض السجاجيد الأفضل أن تضموها إلى ما أخذتم».

السفير غاضباً: «كلها محفوظة في أصيلة، فلماذا لا تعود إليها».

الريسوني: «لن أعود إلى أصيلة، وعائلتي هي المغرب كله».

قصر أصيلة . !

وقادتني حكاية الريسوني إلى زيارة أصيلة التي تضم قصره وهي مثل العديد من المدن العربية المنتشرة على طول الوطن العربي. تمثل تاريخ «محفوظ» وانتقلت من صناعة الحضارة إلى «مستودع» لما تبقى منها وتتميز أصيلة بأنها أحد الثغور العربية التي يغلب عليها تاريخياً الوظيفة الحربية، ومع التردي العربي تحول الدور من الأصل إلى الصدا، واكتفى السور والبوابات والابراج القديمة بلعب دور متحفي يحكي مشاهد قتالية من الصراع بين الشرق والغرب بين العرب وأوروبا . .

فهي تقترب من بوغاز جبل طارق، وتكون كل من سبته وطنجة وتطوان وأصيله. مربعاً من الأرض يشكل شبه جزيرة، ويبرز شاطيء المغرب برأس ضخم . .

وقصر الريسوني يكاد يقع في قلب القصبة ـ الحي القديم ـ أقف أمام قصر الريسوني وقد أقامه يوم كان حاكماً والذي يروي جانباً من حكايته، أنه تحفة فنية رائعة يعكس مجموع القيم الحضارية والجمالية لصاحبه، عربي أندلسي بصحنه، وردهاته ومقصوراته وبالنقوش البديعة على جدرانه التي اتخذت من الآيات القرآنية والشعر العربي مادتها، وينقسم الجدار إلى جزء من الفسيفساء برسومه وألوانه المختلفة وجزء من الجص المنقوش والثالث من الخشب المحفور بأشكال هندسية من دوائر ومنحنيات، ووسط

الصحن نافورة من الرخام، حوضها قطعة واحدة من المرمر الدقيق، وتعلو الصحن قبة الزجاج، ويطل على الصحن طابق ثان به بهو الاستقبال وسقفه من الخشب المحفور، وهذا البهو يقود إلى بهو آخر لا يفصل بينهما سوى صف من الأعمدة والأقواس . .

ووصلت إلى القصر عبر أسوار وبوابات وبيوت قصبتها، وهي مثل أغلب مدن المغرب تقبع في «الرباط » وراء الأسوار، وخارج الأسوار تقوم المدينة ومنشآتها الحديثة . .

تعلو الأرض، وتتداخل الأزقة، وتنتصب البوابات الحجرية القديمة، وحينما تتخطاها فكأنك تعبر من زمن إلى زمن آخر وليس من مكان إلى آخر .

ويردد أهل أصيلة . . «ان القصر هو الريسوني مجسماً للخلود بفكره وعمله وضميره بكرمه وحبه للحياة، واستعداده للدفاع عنها . . » .

وبعد أن صادر القصر الاسبان، بقي مهملاً حتى سويت قضية الأملاك الاسبانية في المغرب، وخلال هذه الفترة استأجره من السلطات الاسبانية نائب أصيله ورئيس جمعية المحيط محمد بن عيسى لمدة عشر سنوات، بمبلغ رمزي قدره درهم مغربي واحد عن كل سنة . . . ! وقد أصبح عمر بن عيسى وزيراً للثقافة فيما بعد .

وقامت جمعية المحيط بترميم القصر، وحولته إلى قصر الثقافة،

وجهزت به قاعة كبرى للمحاضرات والعروض المسرحية والسينمائية، وضمت غرفه ورشاً مجهزة للتشكيل الحفري ومسرحاً وقاعة لعرض الاعمال التشكيلية. !

هذا عن قصره أما حياته فقد تحول كتاب روزيتا فوربز «سلطان الجبل» إلى فيلم سينمائي ينقل دراما حياته، وكيف تنقل من السجن إلى الحكم، ومن قتال الاسبان إلى التحالف معهم ومن الحياة الشاقة في كهوف الجبال إلى القصر بحياته الناعمة. .

ونعود ونتابع دراما حياته. .

اشتعلت من جديد الحرب بين القبائل وبين الجيش الاسباني فبعد ان تذبذبت العلاقات زهاء ثمان سنوات بين الريسوني والاسبان انتهت مرة أخرى بتحديد نفوذه فوق قمم الجبال، وان يترك للاسبان الساحل، «السهول لهم والجبال لنا». وهذا ما انتهت إليه الحرب في أواخر عام ١٩١٥، وأعادت الحكومة الاسبانية أملاكه إليه، ومدته بالمال، وقالت القبائل. . «خاننا الريسوني باع البلاد للأجانب. .».

ورغم الاتفاق استمرت المناوشات بين سلطة الساحل الاسبانية وبين سكان الجبل. .

الأفول

وبدأ نجم الريسوني يأفل في شتاء عام ١٩٢١، فقد افرزت

المقاومة قيادة جديدة شابة لا تساوم، ومسلحة بالمعرفة والعلم فأضرم الزعيم عبد الكريم الخطابي نار الثورة وأشعل الجبل، وانتصر انتصاراً هائلاً في معركة أنوال وسجل علامة هامة في حرب الشعب. .

وفي هذه الأثناء سارع المقيم الاسباني الجديد يعرض السلم على الريسوني، وعقدت معاهدة صلح وسلم وولاء بين اسبانيا والريسوني عام ١٩٢٢، أليس هذا هو ما حدث بعد ذلك مع مصالي الحاج في الجزائر وما زال يتكرر اليوم. . !

وهزم وقضى الريسوني نحبه مدحوراً بسبب ولائه للاسبان فبعد أن احتل الخطابي المنيع من الجبال، وتتابعت هزائم القوات الاسبانية والريسوني في شغل شاغل يطلب من القبائل وقف قتالها للاسبان، ويدخل رجال الخطابي إلى معقل الريسوني ويزحفون على تزورت، وتدور المعارك يومين متتالين وتنتهي بالقاء القبض على الشريف وهو في السبعين من عمره، ووضع في الأسر في تماسنت، وبعد خمسة شهور يموت في محبسه.

ويأتي صوت الريسوني، من بعيد، وهو يتحدث إلى مؤلفة كتاب «سلطان الجبل» يقول: «إذا تعلم الوطن العلوم الحديثة فسينتصر الوطن أخيراً على الأجنبي، وهذا هو محمد عبد الكريم

(*) الشقيق الأصغر للزعيم عبد الكريم الخطابي درس في ملقا الاسبانية وشارك شقيقه احداث الثورة وأيام المنفى أما عبد الكريم الخطابي فقد درس في جامعة =

الخطابي الذي تعلم في مدريد وأصبح مهندساً، استخدم علمه وهو يحارب الأجانب. .».

وأضاف قائلاً: «عندما كان صبياً طلب والده أن أساعده ليرسل ابنه إلى مدريد ليتلقى فيها العلوم الحديثة ففعلت وكان جزائي أن يحرض على القبائل. .».

واستمرت مأساة الشريف لتلاحق ولده خالد، فبعد جلاء القوات الاسبانية من المناطق الشمالية في المغرب، كان يتولى حكم مدينة لاراش، واتهم من الاهالي انه جاء بنفوذ الاسبان، وأجبر على أن يغادر البلاد مع الجنود الاسبان. .

= القرويين وهزمت ثورته بعد أن تحالفت عليها فرنسا واسبانيا واستخدمت الطائرات الفرنسية لضرب معاقلها.

العمليات العسكرية
ضد العصاة واحتلال تازاروت

احتلت عساكر المخزن الشريف موقع تازاروت حيث العصاة كانت قد الغمت بزورها والثورة تأصلت عروقها ظانة بأنها في مكان أمين وواثقة بوجودها في حصن منيع يمكنها من الثبات والمداومة على العصيان والمقاومة وصلت إليها عساكر النظام وأذلت عتو الظالم المتمرد العاصي ولقد كانت لهذا الخبر زفة مرح وسرور بين أولئك الذين يحبون السلام وإذ ارتفع عن القبائل نير الاستبداد والاستعباد الذي كانت تحمله على عاتقها وأصبحت معتوقة من المعاملة الجافية والقاسية التي كان يعاملها بها ذلك المختلس الغاصب للحقوق التي ليست إلا لمن ينازعه بها لأنها قد أعطيت له من الله تعالى. ومن الآن فصاعداً سينتصر صاحب الحق وليس صاحب القوة وسيرى الناس بأنهم مشمولون بالعدالة وقوة المخزن وتكتنفهم حرارة الطمأنينة والنظام وتنمو الثورة بفتح الطرقات ويؤتى بالتجارة والصناعة وكل ما من شأنه تحسين أحوال القبائل ويسعدها.

* * *

في أواخر شهر ابريل الماضي كانت قد احتشدت العساكر في

المعسكرات العمومية في المنشرة وسوق الخميس بني عروس تحت زعامة سعادة المقيم العام الاسباني الذي كان قد جمع كثيراً من عساكر الخيالة والسلاح والمدافع من رشاشة وخلافها ومن المهندسين وتكاثر عدد الطيارات في تلك الأيام وتكاثر طيرانها فوق البلاد العاصية فكانت تمطرها بنيران قنابلها التي كان لها المفعول القوي في التخريب والتدمير

وفي اليوم الثامن والعشرين من الشهر المذكور رغماً عن سقوط الأمطار وقرص البرد اخذت تلك القوة بالزحف ورغماً عن مقاومة العدو الشديدة قد وقع احتلال كدية السلالم وتأكوم والمعمة وهي مواقع ذات أهمية استحكامية كبيرة وفي داخل هذه المواقع وسهولها الثلاث والسطح كدية رست النيران تلك الزروع المخصبة التي كان يعتمد أهل العصاوة عليها لأجل تموينهم ومقاومتهم .

ولقد ازدادت الحالة الجوية رداءة ومنع سقوط الأمطار الغزيرة والرياح العاصفة متابعة العمليات كما كانت نية سعادة المقيم العام وفى اليوم الثاني من مايو الجاري لما كانت حالة الجو قد تحسنت استغنمت العساكر الفرصة واستولت على ظهر بردع وسعت في فصل بني يوسف عن سوماته والمقصود تصغير قوة العدو بقسمتها إلى جزئين .

وفي اليوم الثاني عشر قد تم احتلال تازروت ومن مشاهدة آلات العذاب التي عند الريسوني في سجن تازاروت تتفتت الأكباد

لدى التأمل بالعذابات التي كان يعانيها المساكين الأهالي الذين استوجبوا سخطه وغيظه وهذه أيام كان قد مر بي سوق الخميس بني عروس البعض من هؤلاء المساكين الذين تمكنوا من الفرار من السجن وبدون شك أنها ستبقى مؤثرة في أجسادهم آثار العذابات التي قاسوها في حبس الريسوني ما داموا على قيد الحياة.

* * *

وان أخبار هذه المصائب قد ملأت تلك الانحاء خوفاً ورعباً ولذلك اننا نرى في كل يوم وفوداً من الانحاء تتقاطر إلى دوائر الأحكام الأهلية لأجل طلب العفو والامان من مراحم المخزن الشريف وان هذا الخوف أصبح بهذا المقدار شاملاً حتى ذات أقارب الريسوني لان الحسين بن ريسون ابن عم أحمد الريسوني قد سلم نفسه إلى الحكومة تسليماً كلياً وبدون شرط وقام بعده بني جبارة الخماسية فقد التمست الأمان أيضاً وأما الريسوني فقد لاذ بكهوف جبل أبو هاشم محروماً من ماله ومتاعه تزداد عليه المضايقة يوماً فيوماً من الطيارات وقذائف أسلحة العساكر المخزنية التي لم تزل تتقدم نحوه ولا تبطيء حتى تستولى علي آخر مكان احتمائه(*)

جريدة «الاصلاح» كانت تصدرها الاقامة العامة بتطوان وفي عددها 94 السنة الخامسة الصادر بتطوان صباح يوم 27 ماي 1922 تتحدث عن العمليات العسكرية ضد «العصاة واحتلال تازروت» واختتمت خبرها: «واما الريسوني فقد لاذ بكهوف جبل بو هاشم محروماً من ماله ومتاعه تزداد عليه المضايقة يوماً فيوم من الطيارات وقذائف أسلحة العساكر المخزنية التي لم تزل تتقدم نحوه ولا تبطيء حتى تستولي على آخر مكان احتمائه.

وفي يوم 8 جمادي الأول 1318 هـ تقدم الشريف البركة سيدي أحمد البشير الريسوني بطلب ثاني يتشفع إلى السلطان مولاي عبد العزيز في إطلاق سراح الشريف أحمد الريسوني

وقد كتب الموظف المسؤول على الحاشية هذا التلخيص الذي نجد أصله على نفس الرسالة المحفوظة في الوثائق الملكية :

«مولاي أحمد بن البشير الريسوني.

أخبر أن الخديم ابن عبد الصادق كان قبض على ابن عمه السيد أحمد بن محمد الريسوني ووجهه لسجن الصويرة وهذه مدة من ست سنين منذ سجن وهو يطلب منه التشفع فيه لدى الجناب لشريف وهو يسوفه إلى أن ظهر منه اخلاص التوبة والامانة مما كان ارتكبه فكتب لجلالة سيدنا طالباً قبول شفاعته في تسريحه»

(يسرح) توقيع الملك بقلم الرصاص «نفذ»

توقيع غير مقرؤ.

بتاريخ 5 ربيع الثاني 1318 هـ تقدم الشرفاء الريسونيون السادة :

محمد بن أحمد ـ أحمد بن الحاج عبد الرحمن ـ أحمد بن الطيب ـ أحمد بن البشير نائباً عن نفسه وعن أخيه محمد بطلب إلى السلطان

مولاي عبد العزيز لاطلاق سراح الشريف مولاي أحمد الريسوني.

وفي الحاشية نعثر على التلخيص الآتي لهذه الرسالة قام به الموظف المسؤول لدى السلطان حيث نقف على الأصل والتلخيص في مديرية الوثائق الملكية بالرباط : وهذا هو التلخيص بنصه:

(شرفاء تزروت يطلبون تسريح ابن عمهم الذي بسجن الصويرة المسمى بالسيد أحمد بن محمد

نعم سيدي أعزك الله. هذا شريف كان اعتراه «جذب» وصدرت منه حماقات فطلب قرابته من ابن عبد الصادق قبضه كفاً لاذايته فقبض، وصادف الحال صدور الأمر الشريف بنقل من سجن طنجة للصويرة من المساجين توسعة للسجن وقطعاً لكلام الاجناس الذين يتكلمون في المساجين فنقل معهم للصويرة، وقد كتب الطريس في شأنه أيضاً وأمر سيد نابيان سجنه وهذا جواب السؤال الشريف ولمولانا النظر إمضاء غير مقرؤ)

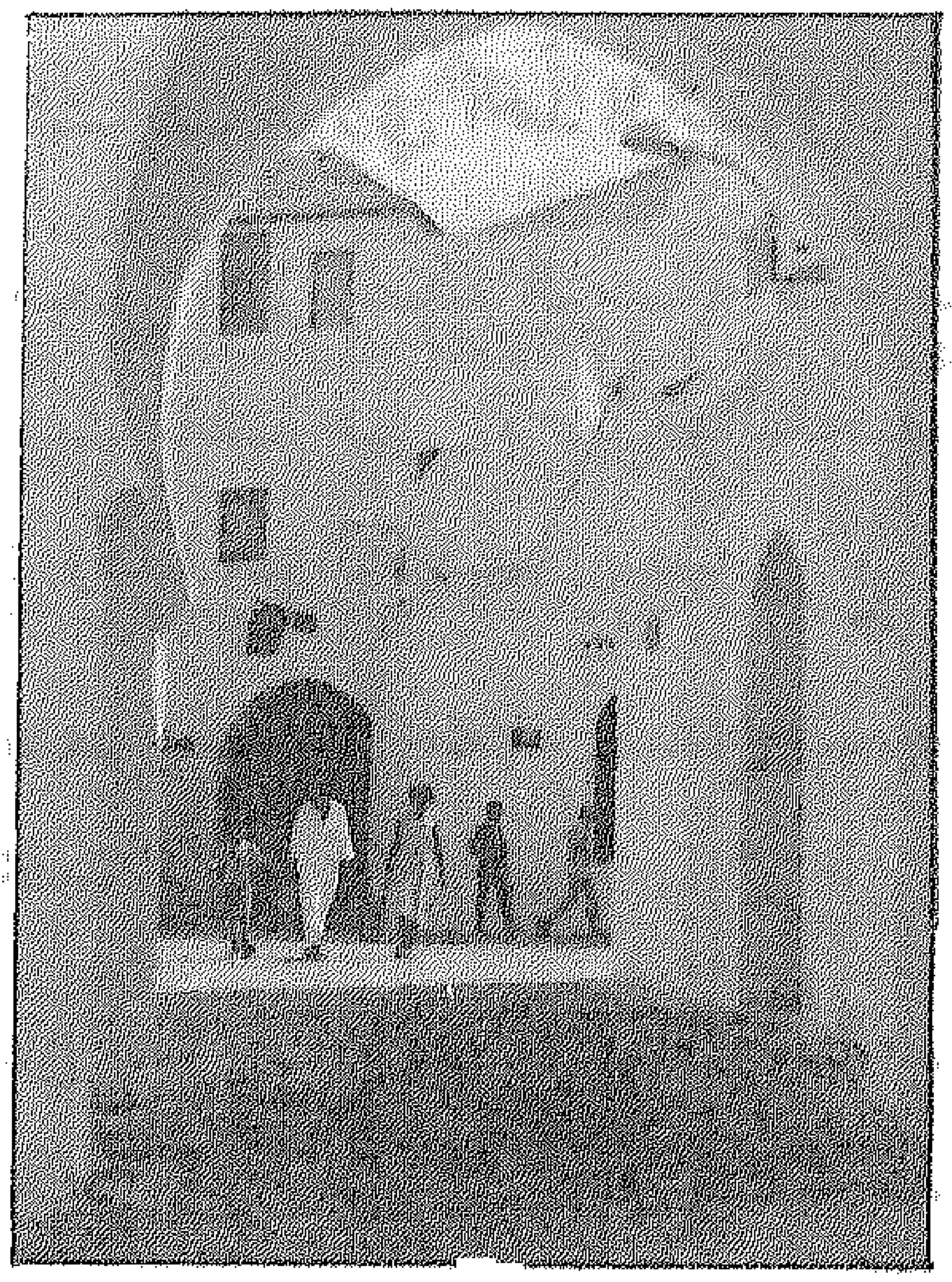

قصر الريسوني في أصيله

السلطان عبد العزيز

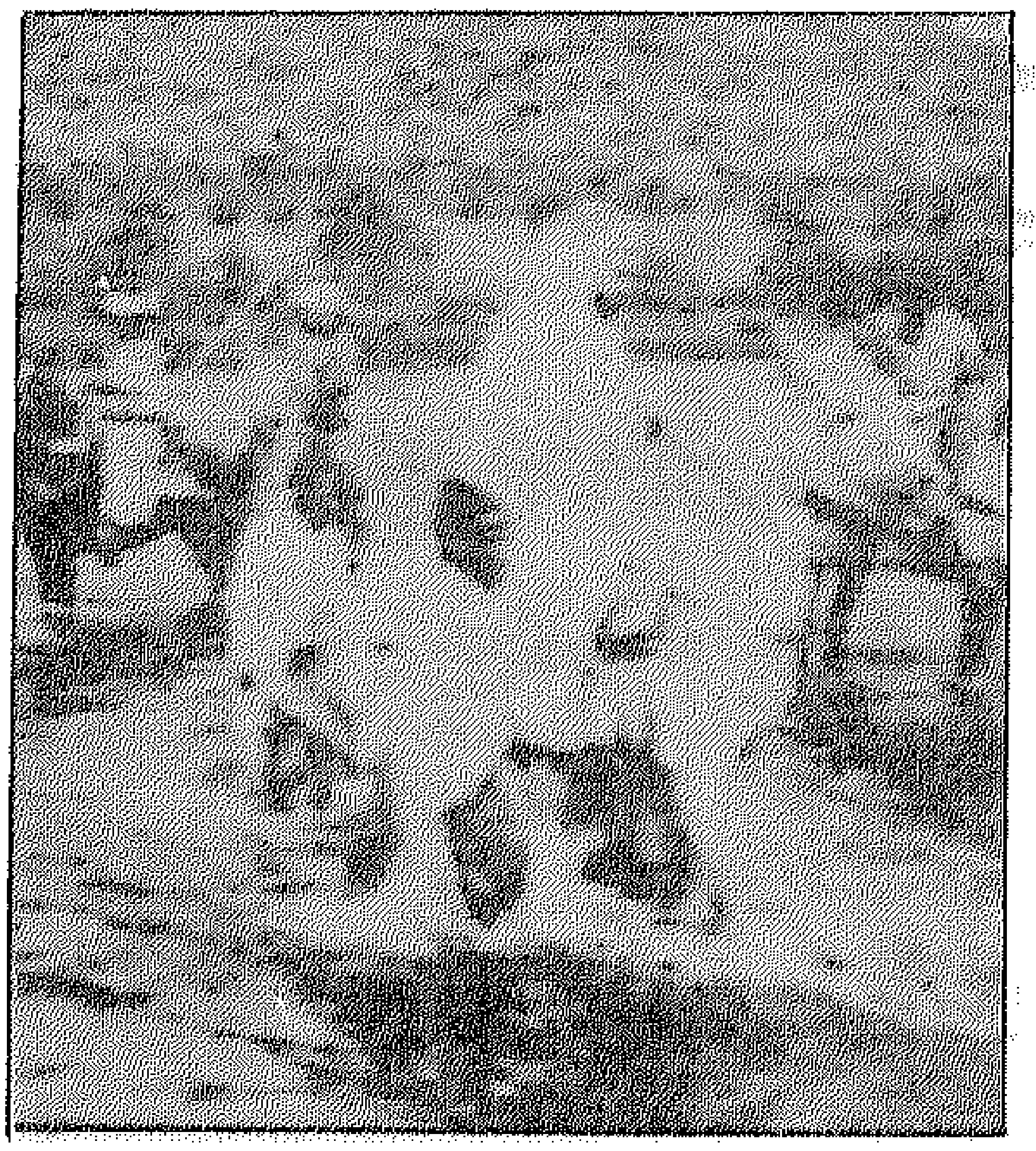

السلطان عبد الحفيظ

الشريف أحمد الريسوني مع روزينا فوربس
في حصنه في الجبل

أورطة مصرية سودانية
تحارب في المكسيك

كيف استدرج الفرنسيّون
سعيد باشا إلى حرب المكسيك؟

هذه صفحات مطوية من التاريخ . .
عندما شاركت «أورطة» مصرية ـ سودانية في حرب المكسيك عام ١٨٦٣ م والتي جرت وقائعها بعيداً وراء المحيطات والقارات.
بين الجمهوريين ودعاة الامبراطورية في المكسيك، وهي حرب لا ناقة لمصر فيها ولا جمل، قامت خدمة للمصالح الاستعمارية لفرنسا وبريطانيا واسبانيا
وما يثير الدهشة ان هذه الحرب لم تحتل في كتب التاريخ سوى صفحات معدودة، رغم ما تحمله من عبر ودروس، ورغم ان هذه «التجريدة» امضت في حربها أربع سنوات وسبعة عشر يوماً.

قرر هذه الحملة الوالي محمد سعيد باشا، واستمرت إلى عهد سلفه الخديوي إسماعيل والتي تقررت مجاملة لنابليون الثالث امبراطور فرنسا، والبعض يؤكد أنها استمرت بسبب العلاقات الخاصة جداً بين الامبراطورة أوجيني والخديوي إسماعيل!

ويحتل سعيد مكاناً خاصاً بين أفراد أسرة محمد علي. ففي فترة حكمه برزت فكرة المواطنة وحقوقها المتساوية وهو أول من جعل اللغة العربية بدلاً من التركية لغة المعاملات.

وأول من جند المصريين تجنيداً إجبارياً لمدة عام، ولم يستثن أبناء العمد والمشايخ بعد أن كان التجنيد يقتصر على أبناء الفقراء، وفي هذه الفترة دخل عرابي إلى الجيش، وهو القائل: «نظرت في أحوال الشعب المصري وتاريخه فوجدته مظلوماً مستعبداً لغيره توالت عليه الدول الظالمة، الهكسوس والأشوريون والفرس واليونان والرومان قبل الإسلام. . . . وكثيراً ما أغارت فرنسا على مصر حتى احتلتها في أوائل هذا القرن في زمن بونابرت، وبما اني اعتبر نفسي مصرياً فوجب علي أن أربي هذا الشعب وأهذبه تهذيباً حتى أجعله صالحاً يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة، ويستغني عن الأجانب. . . »

ويقول في رسالة بعث بها من الخارج. . . «لا أريد اقامة زينة واحتفالات لدى عودتي ولا أرغب في أن يتكلف الأهالي مصاريف للتزلف، ويجب على كل ديوان أو مصلحة أن يبقى مواظباً على أعماله وأشغاله. . . ».

وكان هو أيضاً الذي اعطى صديقه ديلسبس امتياز حفر قناة السويس وكان آخر عمل غير عادي ختم به حياته هو استجابته لنداء نابليون الثالث في الاشتراك في حرب المكسيك!

البحث عن شركاء

ولنتابع الحملة المصرية إلى المكسيك من بدايتها، ونتبين السياق الدولي الذي وقعت فيه. .

كانت الحملة تستهدف مواجهة الثورة الوطنية التي اشتعلت هناك، وظروف المكسيك في هذه الفترة التاريخية قريبة الشبه بما كانت تشهده مصر، وهي موطن أقدم الحضارات الهندية وأرقاها، وكانت تشهد حركة اصلاح ديمقراطي، كان احدى ثمارها دستور ١٨٥٧ م. وقامت حركة مضادة استعانت بفرنسا وفرضت الأسرتان الحاكمتان في كل من فرنسا والنمسا أحد أفراد أسرة الهابسبورج الامبراطور ماكسيميليان حاكماً على المكسيك، وتذرعت هاتان الدولتان ـ كمبرر لهذه الحرب ـ باساءة حكومة المكسيك معاملة رعايا فرنسا وانجلترا واسبانيا، وعدم تسديد ما عليها من ديون!.

أما الدافع الحقيقي للحرب، فهو الرغبة في إقامة حكومة موالية لهذه الدول، تحقق التوازن في القارة الأمريكية مع الولايات المتحدة القوة الديمقراطية الجديدة البازغة، ولكن ما لبثت كل من بريطانيا واسبانيا ان سحبت قواتهما بعد أربعة شهور من القتال، وتُركت فرنسا متورطة وحدها هناك، فأخذت تبحث لها عن شركاء، وخاصة أن المناخ القاري للمكسيك ومناطقها الجبلية كانت تستعصي على الفرنسيين، فتقدم نابليون الثالث يطلب إلى «صديقه» سعيد إرسال قوات مصرية للقتال في جبال المكسيك ووهادها..

كان الهدف إذن، القتال ضد ثورة تهدف إلى التحرر ومساندة دولة استعمارية أي الوقوف مع الأعداء ـ فرنسا ـ ضد الاصدقاء «ثورة المكسيك» ورغبة شعبها في التحرر!

وانتهت الثورة المكسيكية بالانتصار، وتولي زعيمها الوطني جواريز رئاسة أول جمهورية، وقتل الامبراطور ماكسيميليان التي أرادت فرنسا أن تفرضه على شعبها!

وقد نشر الأمير عمر طوسون في بداية الثلاثينيات كتاباً روى قصة هذه الحملة منذ مغادرتها الاسكندرية وحتى عودتها يوم ٨ يناير ١٨٦٧ وقد بدأت وعدد جنودها ٤٥٣ وعادت بعد أن فقدت ١٤٠ جندياً.

غادرت «التجريدة» ميناء الاسكندرية على متن الباخرة الفرنسية «لاسين» في طريقها إلى ميناء طولون الفرنسي. وهناك شاهد الجنود القادمون من النجوع والكفور لأول مرة مدينة أوروبية، يتحدث أهلها لغة أخرى، ونساؤها جميلات سافرات، وقبل ادراك ما حولهم ينتزعون من هذا العالم الغريب، وينضمون إلى بقية القوات القادمة من عدد من المستعمرات الفرنسية، ويستقلون سفينة أخرى في طريقها إلى ساحة المعركة في المكسيك، التي وصلوها يوم ٢٣ فبراير وبعد أن فقدت الأورطة سبعة من جنودها في رحلة الآلام!

وعندما وصلت الجيوش الفرنسية التي تضم الأورطة المصرية. إلى مكسيكو العاصمة المكسيكية أقيمت احتفالات كبيرة، وتم استعراض الأورطة المصرية السودانية في أكبر ميادين العاصمة ومنح

كل جندي ٦٥ سنتيماً يومياً علاوة على راتبهم الذي يتقاضونه من الحكومة المصرية.

القائد= ٥ الآف فرنك!

وواجهت الحملة منذ مراحلها الأولى مشكلة التواصل مع بقية الجنود وتمكنوا من حلها عن طريق الجنود الجنود الجزائريين الذين قاموا بالترجمة، وأخذت التقارير التي ترد إلى القاهرة تصف العديد من المصاعب التي مرت بها هذه الحملة، وهي تقاتل حرباً ليست حربها في بلاد بعيدة وتفصلها عن أوطانهم البحار والمحيطات، وكان سوء المناخ أهم أعداء الحملة بما يسببه من أمراض، وفقدت الأورطه قائدها جبر الله محمد بعد فترة قصيرة عندما أصيب بالحمى الصفراء. وخلفه محمد الماس، وترك ٥ آلاف و ٦١٧ فرنكاً أرسلتها السلطات الفرنسية إلى أسرته في القاهرة مع خمسة آلاف فرنك أخرى منحة من السلطات الفرنسية.

وجاء في أحد تقارير الحملة: «تميزت هذه الوحدة بالشجاعة والبراعة في الرماية وقوة التحمل، لذلك أوكل لهذه الوحدة دعم المواقع المتقدمة وتولي أصعب المهام. وهي صد الغارات التي تشن على قوافل المئونه والذخيرة». . .

والمدهش حقاً ما سجلته هذه الحملة من أعمال باسلة في المعارك التي خاضتها. رغم افتقارها للمعنى والهدف، ومن أوراق

هذه الحملة ما كتبه القائد الفرنسي لمنطقة فيراكروز حول الموقعة التي نشبت في ٢ أكتوبر عام ١٨٦٣ قال: «ابلت الحملة بلاء حسناً ولم يبالوا بقوة النيران التي أطلقت عليهم، وردوا المهاجمين الذين يفوقونهم عدداً بنسبة تسعة إلى واحد!»

وذكر كتاب «مصر في عهد إسماعيل» الذي كتبه كل من اميدية ساكريه ولوي اوترين قصة هذه المعركة يقول الكتاب: «غادر أحد القطارات محطة فيراكروز تحت حراسة جنود الأورطة المصرية ـ السودانية، وعند نقطة على الطريق بين الجبال في ممر لا يتجاوز عرضه أربعة أمتار وعند منحنى وعر، نصب كمين للقطار بعد أن انتزعت قضبانه. وبدأ الثوار يطلقون النار من كل جانب، وما كان يشغل جنود الحملة في هذا الوقت الدقيق سوى رد المهاجمين، وعندما خرج القائد الفرنسي «ليجين» وهبط من القطار تبعوه، وقذف بجنوده إلى المرتفعات تحت نيران المهاجمين، وأصيب القائد الفرنسي ومرافقه بلال بطلقات قاتلة، فتقدم بخيت بدروم وأتون سودان وحملا ليجين وبلال حماد، وتسلم الملازم شرر القيادة وأعاد تنظيم قواته لتواجه كل الاحتمالات، ونجح في صد المهاجمين وأبعادهم عن القطار المزدحم بالنساء الهلعات والكهول العاجزين، واستمر القتال حتى وصل الدعم، ولا شك أن صد الهجوم يعود إلى ثباتهم وشدة مقاومتهم لما يزيد على ثلاثمائة مهاجم. . .»

وتشمل أوراق الحملة رسالة كتبها القائد العام للقوات الفرنسية لنظارة الجهادية في القاهرة يقول فيها: «ان الأورطة قاتلت بشجاعة نادرة فلم أشاهد قتالاً نشب في هدوء وحماس كما شاهدتهم، فكانت أعينهم وحدها هي التي تتكلم وكانت جرأتهم تذهل الجميع . . »

وتضمنت سجلات قصر عابدين رسالة كتبها الخديوي إسماعيل إلى قائد الحملة يعبر فيها عن تقديره . . . «وردت على مسامعنا ما قمتم به من ثبات واقدام في الحرب وما ابديتموه من شجاعة ومهارة، ما أوجب الالتفات إليكم من الدولة الفرنسية، وارتحنا غاية الارتياح لما ظهر منكم، فحافظتم على الشرف الذي حصلتم عليه من الحكومة المصرية . . وأقصى آمالنا انقيادكم للأوامر التي تصدر من الجنرال الفرنسي، وحصول سرورنا يكون بحصول سرور الجنرال وسرور الدولة الفرنسية منكم ومن أفعالكم . . . »!!!

وتمضي الأيام وتكمل الحملة سنتها الرابعة ويقترب رجالها من أهالي المكسيك، ولا يفوتهم التشابه بين بلادهم وبين البلاد التي وصلوا إليها، ويتعلم بعض أفراد الحملة اللغة الأسبانية السائدة ويتعاطفون مع آمال الشعب المكسيكي، ويتعلم الأهالي صناعة الخبز المصري الذي حرص رجال الحملة على صنعه، والذي يذكرهم بما تركوه خلفهم في أرض الوطن، ومع بداية عام ١٨٦٧ يتقرر جلاء

القوات الفرنسية، ويبدأ انسحاب الأورطة يوم ١٣ يناير تاركة خلفها ذكريات مرة مع الذين سقطوا بعيداً.

وتعبر بهم الباخرة المحيط وتصل إلى ميناء سانديز الفرنسي، ويتوجهون إلى باريس، يستقبل جنود وادي النيل الامبراطور نابليون الثالث في حديقة قصره في حضور ناظر الجهادية شاهين باشا، الذي شاهد الامبراطور يثني على رجال الحملة، كما شاهد قائد الحملة البكباشي الماس يرد على الامبراطور معبراً عن تقديره، ثم وزع على أفراد الحملة المكافآت والأوسمة..

وأخيراً يصل الرجال إلى الاسكندرية في أواخر شهر مايو، ويستقبلهم الخديوي إسماعيل في فناء قصر رأس التين. وبذلك يسدل الستار عن فصل في تاريخ العلاقات المصرية الفرنسية أو بالاحرى فصل في علاقات العرب بالغرب، ولم يكن الفصل الأخير..

أما مغزى الحكاية كلها، فيظهر في أنه بالرغم مما قام به سعيد من الاستعانة بفرنسا من أجل دعم استقلال مصر تجاه الدولة العثمانية، ورغم ما استهدفه خلفهِ إسماعيل من خلق توازن بين كل من فرنسا وانجلترا لدعم استقلال مصر. فلم يسفر كل ذلك سوى عن نتائج عكسية!..

ولم تجد المشاركة في حرب المكسيك شيئاً ولم يفد انتشار الخبراء

الفرنسيين في الإدارة المصرية، بل ولا حتى حصول فرنسا على امتياز قناة السويس، بل وحتى ما أعلنه وسعى إليه الخديوي إسماعيل من أن تكون مصر قطعة من اوروبا.

ومضت المخططات الاستعمارية في طريقها، واشتركت فرنسا في صندوق الدين، وكانت أنشط الدول المطالبة بتخلي الخديوي إسماعيل عن عرش مصر..

وتظهر المأساة التاريخية في أجلى صورها، عند المقابلة بين دوافع حرب المكسيك ودوافع الاطاحة بإسماعيل، عندما استخدمت ضد إسماعيل ذات الذرائع التي حارت بسببها الأورطة المصرية السودانية في المكسيك، بل استخدمت الحجج نفسها التي تذرع بها البريطانيون عند احتلالهم مصر في يونيو عام ١٨٨٢، اساءة معاملة الرعايا الأجانب وضمان تسديد الديون...

ويمضي التاريخ يستصرخ من يدرك عبره..

محمد سعيد باشا

الامبراطور ماكسيميليان

نا بليون الثالث

إسماعيل باشا

الامبراطورة اوجيني

أربعة من ضباط الأورطة المصرية بالمكسيك
من بينهم القائمقام صالح حجازي

مأساة أميرة من عمان

مأساة «أميرة عربية» ترويها مذكرات سالمة ابنة السلطان سعيد.
وتكاد هذه المذكرات أن تكون أول عمل من نوعه في العربية، نقلت سالمة خلاله حكايتها، بكل ما تحمله من عبر ودروس بعد أن ساهمت في مأساتها شخصيتها المتقدة والمغامرة، فلم يتناسب طموح سالمة وأهدافها مع ظروف أميرة شرقية عاشت في القرن التاسع عشر. وقادتها مغامراتها إلى بحر الصراع الاستعماري المتلاطم، في مرحلة اقتسام العالم العربي وأفريقيا، وينتهي بها الحال إلى امرأة تائهة تنتقل بين العواصم الأوروبية. ولم يفارقها أبداً حلم العودة إلى الوطن، وبلا قصد منها، وفي ثنايا حكايتها تقرأ مجد الدولة العربية الممتدة بين آسيا وأفريقيا التي أسسها والدها السلطان سعيد.

وتعتبر مذكرات سالمة وثيقة هامة تنقل عصراً بأكمله، بأحداثه وشخصياته وأسراره، تكتبها أميرة عاشت خلف الأسوار، وشاهدت صناعة القرارات الهامة، وهي تقدم لوحة غنية بالألوان والظلال تعثر خلالها على تفسير الوقائع التاريخية الهامة، وتجد فيها الحياة الاجتماعية لعائلة السلطان، وتقدم العادات والتقاليد

والازياء بعين نفاذة وقلم رشيق.

وكتابة التجارب الذاتية نادرة، وهي أندر عندما تكتبها أميرة عربية، ولا أعرف ما يشبهها سوى مذكرات الأميرة جلنار زوجة الخديوي عباس حلمي.

وهدف أميرتنا من كتابة المذكرات أن تقدم لأبنائها الذين ولدوا في المانيا تاريخ عائلتها لكي يتعرفوا على وطنها، وعلى ذلك العالم البعيد الذي جاءت منه، ونشرت هذه المذكرات باللغة الألمانية عام ١٨٨٦ وترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبية، ولم تترجم إلى العربية إلا مؤخراً، ونقلها عبد المجيد القيسي، ونشرتها وزارة التراث القومي في عمان. وتقدمها الأميرة بقولها: «انتهيت من كتابة قصة حياتي ليقرأها من بعدي أولادي حين يكبرون، فلم يكونوا في سن تسمح لهم أن يعرفوا شيئاً عن ماضي حياتي، وأصل منبتي، وعن وطني وقومي وكنت حين كتبتها في حالة من الوهن والارهاق، لم أتصور معها اني سأبقى على قيد الحياة لكي أروي لهم بنفسي سيرة حياتي.»

سر الاميرة»

ما هو سر سالمة التي انتقلت مں أميرة إلى مواطنة المانية، وتركت خلفها حياة الشرق لتعيش حياة الغرب، وتخلت عن الحجاب إلى الاختلاط والسفور، وغيرت اسمها من سالمة بنت سعيد إلى أميل روث.

لنعرف سرها، نعيش معها طفولتها السعيدة الوادعة، ثم نمضي معها وهي تعاني الوحدة وبرودة الجو والعلاقات في برلين ولندن، ثم حينما يقتلها الحنين للعودة إلى الوطن، ونسمعها تقول: «غبت عن الوجود في تأملات وذكريات، وتواردت على خاطري صور طفولتي وشبابي في بلادي، ثم ما جرى لي بعد ذلك من غرائب الأحداث وصروف الزمان، أعجب لتفاهة الإنسان في هذا الكون وغرابة الصدف في هذه الحياة، فالمرء لا يملك من أمر نفسه شيئاً، ولا يعرف ما يضمر له الغد.

«عربية مسلمة وفي أعز دار، وتحكم الظروف علي بالهجرة إلى بلاد لم أسمع عنها وأعود إلى بلادي نصف مسيحية، نصف ألمانية».

وقبل المضي معها في مذكراتها، نتعرف على بعض الشخصيات التاريخية التي تناولتها في حكايتها:

● سعيد بن سلطان (١٨٠٤ - ١٨٥٦) والدها السلطان الذي حلف في تاريخ عمان وشرق أفريقيا آثاراً لا تمحى، وأقام دولة عربية امتدت من ساحل عمان حتى الساحل الافريقي، ومن بلوشستان حتى موزمبيق، واستمر حكمه خمسين عاماً، كانت أيامه أزهى صفحات تاريخ هذه الدولة، وكان من أكبر الشخصيات العربية في عصره، نقل عاصمة حكمه من مسقط إلى زنجبار، وكان يجمع بين شخصية الحاكم القوى والتاجر الماهر، وتروي

الاميرة مدى اعجابها بوالدها السلطان: «كنت من أصغر أطفاله فلم يتسن لي رؤيته إلا في شيخوخته، ولا اتذكر صورته إلا بلحيته البيضاء الوقور، وكان طويل القامة نحيل القوام، وقور السمت مهيباً، وكانت تقاسيم وجهه تطفح بالرقة والحنان، لكنها تفرض الهيبة والاحترام، وكان مثلاً أعلى لنا جميعاً، كانت العدالة هدفه، والمساواة طبعه، وقد فرضهما في بيته وبين رعيته، بسيطاً متواضعاً بعيداً عن التعالي والتكبر، وكنا نراه ممتطياً جواده متجهاً إلى دار أبسط المواطنين ليهنئه بالأفراح، أو يواسيه في الأحزان، ولم يكن لأبي طول حياته سوى زوجة شرعية واحدة، أما الأخريات فقد ترك منهن عند وفاته خمساً وسبعين من الجواري».

وبعد رحيله نشبت معركة بين ولديه الثويني في مسقط وماجد في زنجبار، تدخلت خلالها البحرية البريطانية وأجبرت الأخوين المتصارعين على قبول تحكيم اللورد كاتنج نائب الملك في الهند، الذي قضى بتقسيم هذه الدولة، وقررت لجنة التحكيم ان المستعمرات العربية في بداية عهد سعيد كانت مجرد «حضانات» لتربية الرقيق! أما الآن فقد أصبحت مدناً كبيرة، تفوق في أهميتها بلاد عمان ذاتها، فكما استقل الانحلو ـ سكسون والأسبان الذين هاجروا إلى اميركا بعد أن كونوا دولاً كبيرة، فكذلك يحق للشعب العربي في شرق أفريقيا ان ينفصل عن عمان، وهذا في مصلحة الحضارة الافريقية ذاتها، لأن الانفصال سيركز جهودهم لنشر الحضارة في افريقيا».

وهكذا انفصلت زنجبار عن عمان.

● ماجد تولى حكم زنجبار بعد والده، وكان أكبر أبناء سعيد في زنجبار، وتصفه سالمة «انه رقيق الطبع طيب الخلق، تولى الحكم عام ١٨٥٦ وهو في الثانية والعشرين، كان أبيض اللون طويل القامة، ولم تكن لديه زوجات عديدات مثل أبيه سعيد وأخيه برغش، وكان مصاباً بالصرع، اشتد به المرض في اخريات عمره، ولم يجد علاجه في الهند، وبدأ يفقد الوعي مدداً طويلة قبل وفاته وأصيب بالجدري في أواخر أيامه فشوه وجهه المليح، وجعله ينزوي في بيته ولا يظهر حتى توفي عام ١٨٧٠ عن ٣٧ عاماً».

وكانت وفاته آخر عهد زنجبار بالاستقلال وتقول سالمة: «كان ماجد قد اضطلع بالحكم واكتسب مودة الناس ومحبتهم، وكانت نفس برغش قد سولت له أن ينتهز الفرصة ويستولي على الحكم، وعمد إلى استعمال القوة، وفرض الحصار على بيت ماجد، بعد وفاة أبيه وأسرع يدفن جثمان السلطان سعيد سراً، وفشل في تولي الحكم لأن ماجد لم يكن في بيته وبرر برغش مسلكه بخشيته من نشوب ثورة في البلاد».

● خولة بنت سعيد، أقرب أخوات سالمة إليها، سيطرت على سالمة بقوة شخصيتها وشجاعتها، وأدت العلاقة بين الأختين إلى الاحساس بالاحباط الذي منيت به سالمة، والصراع بين عقلها وقلبها. ولنتابع ما تحكيه سالمة «كانت عواطف قلبي كلها لأمي،

ولكن مـا أن تعـرفت عـلى مثال الحسن حـولـة حتى سلبتني لبي فأشركتها مع أمي وصـارت معبودتي ومثـالي، وكانت الأبنـة المفضلة عند أبي، وعلى الـرغم مما يحمله البعض نحـوها من الغيرة والحسد، فقد كانت محط إعجاب الجميع وحبهم، وكان لهذا النور المشع من عينيها سحر لا يقاوم، ولم تحتل مكانتها عند أبي لجمالها فحسب بل لخلقها الرفيع وذكائها النادر، وكانت أمها من بلاد الرافدين، وعينها أبي مديرة بيت الساحل، وكان من المستحيل أن ترضي كل فرد من أفراد بيتنا المكتظ .

«ولـلاسف، كانت محـل النقد، وكـانت الملومـة دائـماً حتى لـو نقص الـورد في بساتـين الأناضول، وشح عـطر الـورد المستـورد إلى زنجبـار، وكنت على صغـر سني الوحيـدة التي تحكي لهـا أسـرارهـا وتبوح بآلامها، وكانت أكبر دواعي الغيرة منها عندما يصطحبهـا أبي معـه إلى غرفـة الكنوز، أو يـرسلها إليهـا وحـدهـا حيث الثـروات الطائلة التي تتطلع النفوس حسرة لمجرد النظر إليهـا، ويرتسم عـلى وجوههن الحقد والغيـرة، وهذا مـا حدث عنـدما أهـداها أبي تـاجاً ذهبياً مرصعاً باللؤلؤ والماس اشتراه لها خصيصاً من ايران .

«اعتنت بي خـولة أيـام طفولتي، وشغفت بهـا حباً واعجـابـاً، وأصبحنا أعز صديقتين، وازدادت علاقتنا وتوقاً حين انتقلت خولـة بعد وفاة أبي من بيت الساحل وسكنت معنـا، وشاطـرتها العيش لا نفتـرق، وتعكرت عـلاقتنا بسبب مصـالحتي مع مـاجـد بعـد فشـل

مؤمراتنا ضده، ثم عادت مودتنا إلى سابق عهدها، واقترحت علي بعد وفاة زوجي أن تتبنى أحد أطفالي».

● برغش بن سعيد وقف مع تويني ضد ماجد، وحاول الإستيلاء على حكم زنجبار، وكان عنيفاً حاد المزاج، غليظ الطبع تولى الحكم بعد ماجد، وروى عنه المؤرخون «أن سعيد أنزل الرعية منزلة أبنائه، وأنزلهم ماجد منزلة اخوانه أما برغش فأنزلهم منزلة خدمه». وخلال حكمه أصبحت بريطانيا تسيطر على مقدرات البلاد، فما أن مات ماجد، وخلفه برغش حتى عقد معاهدة عام ١٨٧٣ مع بريطانيا، جعلت للاسطول البريطاني حق تفتيش كل السفن، وتم توقيع أول اتفاق بتقسيم زنجبار عام ١٨٨٦ بين المانيا وبريطانيا، كان لبريطانيا الجزيرة ولالمانيا الساحل.

وروى أحد الشخصيات العربية التي عاصرته في يومياته وهو حامد بن محمد المرجبي المعروف باسم بتوتب نقلاً عن السلطان برغش: «يا حامد لا تؤاخذني، لم يبق لنا في بلاد الداخل خير، إن الأوروبيين يريدون أن ينتزعوا مني جزيرة زنجبار ذاتها، فكيف احتفظ بالبر والداخل؟.. وعلق حامد بقوله: «هنيئاً للذين لم يعمروا، حتى يروا حالنا هذه». وهو الذي وقفت سالمة معه ضد ماجد عند مؤمراته للاطاحة بأخيه، ثم أصبح شديد الكره لها بسبب صلحها في ما بعد مع غريمه ماجد، وبعد تغيير دينها وزواجها من ألماني. واختلطت سطوة السلطان وقسوته بالتقاليد ورغبته في الثأر

من أخته التي صالحت ماجد، فلم يسمح لها بالعودة ولم يقبل منها أي غفران ورحل عن الدنيا عام ١٨٨٨ .

طفولة سالمة.

ولدت الأميرة سالمة عن أم شركسية، وسط عدد هائل من الضرائر، وتصف أمها بأنها صلبة الرأي قوية العزيمة رفيعة الخلق، كثيرة التقوى وديعة صبور تتقبل الأمور باستسلام تام للقدر، وقد توفي والدها وهي لم تبلغ من العمر الثانية عشرة وتبعته امها بعد بضع سنوات، وعاشت طفولة حافلة، تركب الخيل وتحمل السلاح وتبارز بالسيف، ولكنها ظلت بعد وفاة أمها وحيدة لا تجد من يرعاها سوى أختها خولة. . وكانت تتوق لدور تلعبه فأمامها شخصية تلهب خيالها تعلمت أن تقدرها وأن تجلها، هذه الشخصية لعبت دوراً بارزاً في حماية عرش أبيها، انها موزة عمة السلطان سعيد نجدها تقول عنها: «هناك شخصية لامرأة عربية تنفي كل الأوهام الشائعة في الغرب عن تفاهة المرأة الشرقية، والتي ما زالت حتى (اليوم) مضرب المثل في الدهاء والشجاعة والهمة، فقد ترك جدي حاكم عمان أمام مسقط عند وفاته أولاداً ثلاثة، هم أبي سعيد وعمي سالم وعمتي عائشة، وأصبحت العمة موزة وصية على العرش وأصبح على الوزراء أن يفدوا إلى ديوان الأميرة الوصية موزة كل نهار، ليرفعوا إليها تقاريرهم عن شؤون البلاد، ويتلقوا أوامرها وقد أمسكت الأمور بقوة وحزم وراقبت الأشخاص والقضايا بعين

يقظة ساهرة، وكان الويل للمخاتل أو الكسلان من رجال الحكم والادارة، ونبذت قيود العرف، فكانت تكتفي بوضع «الشال» على كتفها حين تجالس وزراءها وتناقشهم في الشؤون العامة، غير عابئة بكلام الناس ونقدهم، وكانت مصممة على انجاز مهمتها بنجاح واخلاص».

كانت هذه الصورة أمامها إلى جانب طبيعتها وحيويتها اللذان لا يتفقان مع الدور الذي يمكن للمرأة الشرقية أن تلعبه، وسقطت في تلك الهوة بين الواقع والخيال وكما تقول هي: «التقاليد القاسية كانت تحرم علينا الحديث مع الرجال الأحرار».

البحث عن دور

وها قد أصبحت سالمة في الخامسة عشرة من عمرها يتيمة الأب والأم تتوق إلى دور تقوم به. وخلال بحثها عن هذا الدور يقع لها حدث يجرفها في أعصار تعيش في زوبعته طوال حياتها، وتحكي قائلة «انتقلت دون اختيار مني إلى المساهمة في مؤامرة ضد سلطان البلاد ماجد، فمن الصعب ايجاد الوفاق بين ستة وثلاثين أخاً وأختاً تتقاسمهم جنسيات امهاتهم المتعددة، وقد انقسمنا بعد وفاة أبي إلى مجموعات صغيرة متطاحنة، ولم يكن للحياد معنى عندنا، فمن كان صديق عدوي أو لم يكن عدو عدوي فهو عدوي بكل تأكيد».

فأين وقفت سالمة في هذا الصراع الذي احتدم بين السلطان

ماجد وولي عهده برغش؟ ولماذا انحازت إلى برغش وهي التي تحب ماجد وتقدره؟

لقد احتدم داخلها صراع بين حبين، حبها لأختها التي رعتها بعد وفاة أمها، وحبها لأخيها ماجد الذي كان دائم العطف عليها والود لها، وانتصر حبها لأختها خولة التي كانت بدورها أهم دعائم مؤامرة برغش ضد السلطان ماجد.

وتحكي قائلة: «ومن عادة أولياء العهد ان يستعجلوا جلوسهم على العرش دون الالتفات إلى حقوق الجالسين عليه، سواء كانوا اخوتهم أو آباءهم، ولا يتعففون عن أي وسيلة، ومنها أن برغش ساءه أن تفشل تدابيره للوصول إلى الحكم عند وفاة أبيه، ولم يفقد الأمل وظل يدبر ويخطط بأن يجمع حوله أكبر عدد من رؤساء القبائل، معتمداً على هرمية النظام القبلي بتماسكه وانضباطه، فالاخلاص للقبيلة وطاعة رئيسها هما جوهر الكيان العربي، وعملت مع برغش بكل ما لديها من قوة ونفوذ، وعندما اكتشف ماجد ما يبيت له في الخفاء حدد إقامة أخيه برغش في قصره، فسارعت سالمة واشتركت في خطة لتهريبه من القصر، «فالجنود الذين أوكلت إليهم مهمة الحراسة كانوا من البلوش الذين لهم ولاء كبير لعائلتنا، ولا يمكنهم أن يفرطوا في أحد أفرادها» فبعد ما صحبت خولة لزيارته في قصره «احسست بالخجل من نفسي وأنا استغل طيبة هؤلاء القوم في سبيل غاية اجرامية سيدفعون ثمنها عقاباً صارماً».

«وفي أمسية لا تنمحي ذكراها من ذهني، تركت وخولة بيتنا يتبعنا رهط من النساء وتوجهنا إلى بيت برغش، وما ان وصلنا عتبة الدار حتى منعنا الجند دون أن يعرفوا هوياتنا. وصحت بأختي خولة: دعينا نذهب إلى ضابط الحرس ونخبره بهوياتنا وسيدعنا ندخل.. وفي ذلك خروج عن العرف والتقاليد، ودخلنا على الضابط وفي لهجة صارمة ومؤثرة عرفناهم من نكون، وسألناهم: كيف يبيحون لجنودهم ان يمنعونا من دخول بيت أخينا؟ وظهرت الدهشة والحيرة في عيونهم وعقدت المفاجأة السنتهم، وسريعاً ما طلبوا منا الصفح والغفران».

ونجحت خولة وسالمة في اخراج برغش من بيته ليتمكن من الانضمام إلى المتمردين، وتفشل مؤامرة برغش، ويخرج من زنجبار على باخرة بريطانية إلى الهند. وتعلق سالمة على ذلك بقولها: «لا شك أن البريطانيين أرادوا الاحتفاظ بولي العهد خليفة ماجد، ليدرب على أيديهم ويتعلم كيف يحقق مطالبهم عند عودته، وقد فعل وأجاد، بعدما قضى في بومباي سنتين ثم عاد حاكماً بعد وفاة ماجد».

ويلاحظ كيف تنتقد سالمة المجموعة التي عملت ضمن صفوفها. وتتساءل: هل هذا عائد إلى ميلها القديم لماجد؟ أم بعد رفض برغش السماح لها بالعودة إلى زنجبار؟ أم بعد ارتمائه في أحضان بريطانيا؟

الرحيل .

المهم، أنه بعد فشل المؤامرة يعود ماجد ويغفر لها ويقدم لها العون حتى تصفه بأنه مثال السماحة والطيبة وسمو الخلق، فهو الوحيد من أفراد عائلتها الذي لم يتنكر لها رغم تآمرها عليه، وهذا الموقف من ماجد تعارض مع حبها لشقيقتها خولة، وتعود عواطفها تتضارب وتعيش صراعاً لا قبل لها به، فتاة في مقتبل العمر، هزم طموحها، وخابت أحلامها، وتعقدت علاقاتها مع من تحب، فأي شقاء تعيشه، وقد تصارعت عواطفها مع عقلها، ولم يعد أمامها سوى الرغبة في الرحيل، فلعله يقلل من شقائها، فما أقسى الغفران من شقيقها الذي تآمرت عليه، وها هي في الثامنة عشرة من عمرها صفر اليدين، بعدما اساءت إلى ماجد وأغضبت خولة، فاعتزلت أهلها وهجرت أصدقاءها، وأصبحت منسية لا يعترف بمواهبها أحد.

وفي هذه الظروف النفسية التعيسة المعقدة تمر سالمة بحدث يغير حالها، فيتوقف كل شيء فجأة، وأصبحت حياتها مثل النهر الذي ترتطم مياهه بسد صلد، فتضطرب حياتها وتضيع باحثة عن مجرى آخر. وكان الرحيل، بعدما التقت بأحد الالمان الذين يعملون في زنجبار، فأحبته وقدم لها أملاً جديداً في نوع آخر من الحياة رغم انها لم ترو سوى شذرات قليلة عن هذه العلاقة، إلا ان هذا الحب انعش شوقها القديم للمغامرة. وتروي هذا الجانب من حياتها بقولها: «تمتع الاوروبيون في زنجبار أثناء حكم أخي ماجد بمركز

اجتماعي لم يكن لهم من قبل، فكانوا يحلون ضيوفاً معززين مكرمين في قصره أو مزرعته، وقد أقمنا أنا وأختي خولة علاقات طيبة مع بعض العائلات الأوروبية في تبادل المجاملات والزيارات وكانت زيارة السيدات الأوروبيات تقتصر علي وعلى أختي خولة من دون نساء القصر. وكانت داره مجاورة لداري، وكان سطح داره أوطأ من سطح داري، وكنت غالباً أراقبه من نافذتي في حفلاته الباذخة التي كان يتعمد اقامتها في الأماكن التي يقع عليها نظري لعلمه برغبتي في رؤيته، وسرعان ما تطورت صداقتنا إلى حب».

ولم يكن زواجها ممكناً في زنجبار، فهربت على إحدى البواخر إلى عدن، ولحق بها الالماني بعد بضعة شهور، ثم سافرا إلى المانيا، وهناك لاحقها حظها العاثر فتوفي زوجها بعد وصولها بثلاثة أعوام في حادث اصطدام تاركاً لها أطفالاً ثلاثة.

وتأتي ضربة القدر الثانية عندما يتولى أخوها برغش الحكم، وتكثف سالمة هذه اللحظات النفسية التي مرت بها في سياق الاعتذار والتبرير وتقول(١): «أو لسنا في سبيل الحب ومن أجله نتخلى عن مبادئنا وأفكارنا وأقدس معتقداتنا؟! كما تتخلى الشجرة الكبيرة عن أوراقها الذابلة في الخريف دون أن ينفعها جذعها القائم في الأرض أو يرد عنها بلاء»!

---

(١) رسائل سالمة محفوظة في أحد المتاحف الالمانية

«مع الامبراطور»

ولم تنقل سوى القليل عن حياتها في المانيا بعد وفاة زوجها، والذي لا يزيد عن أنها مرت بظروف قاسية، ويبدو أن حياتها في المانيا تراوحت بين الاهتمام والإهمال بناء على ما تقضي به الظروف السياسية، فحصلت على لقب «أميرة» وكانت موضع اهتمام الامبراطور الالماني ومستشاره بسمارك، ويروي كوبلاند في كتابه «استقلال أفريقيا» نقلاً عما كتبته سالمة في رسالة إلى برغش: «أخي أريدك أن تفهم أن البريطانيين يرغبون في تحطيم اسمك وسلطانك وهم ينتظرون الوقت المناسب لابتلاع زنجبار كما ابتلعوا مؤخراً مصر! إن حاكم المانيا وكل عائلته يعطفون علي، وقد ذهبت لزيارتهم عدة مرات، فإذا أردت أن أقوم بأي شيء لدى الامبراطور الالماني فإني استطيع أن التقي به وأتحدث إليه».

وأدركت الدبلوماسية البريطانية ما يحتمل أن تقوم به سالمة فرفض الانكليز طلبها التوسط لدى السلطان من أجل عودتها وحصولها على ربع أملاكها في زنجبار، ورفض كل من الانجليز والسلطان عودتها، وتحولت إلى بيدق في اللعبة الدولية بين ألمانيا وبريطانيا، وتمكنت بعنادها من زيارة زنجبار عام ١٨٨٥ على ظهر قطعة من الأسطول الالماني، فأثارت قلق الإنجليز والسلطان في مناورة المانية واضحة تهدف إلى إرهاب السلطان وتهديد المصالح البريطانية.

وعادة ما يدفع البيدق الثمن غالياً، فقد أهمل الألمان الأميرة، ونسوا وعودهم بعد الاتفاق الذي تم بين الحكومتين البريطانية والالمانية، والذي حصلت بمقتضاه المانيا على الساحل تنجانيقا وبريطانيا على الجزر زنجبار.

الحياة في زنجبار.

ونصل إلى البعد الدائم في مذكراتها، وهو حنينها وشوقها للحياة في زنجبار التي أحسنت وصفها، وقدمت صورة حية لما كان يجري في زمانها، فتصف طفولتها وصباها، وننتقل معها في القصور التي عاشت بين جدرانها، وفي البداية تبدو الصورة مهتزة في شريط الذاكرة وسرعان ما يبدأ تسلسل الأحداث والمشاهد ويلفت النظر في هذا الجزء من وصفها تلك المناطق التي أتيحت لي فرصة زيارتها، وعشقت طابعها العربي المميز، فمثلاً تصف حياة قصر «المونتي» الذي كانت جداوله تخترق بستان القصر، والذي كان مكوناً من العديد من الأجنحة، وفيه عدد كبير من المسالك والممرات المتعرجة والمتقاطعة، والذي لا يسلم في التيه داخله إلا من طال سكناه، وتقدر عدد سكانه بألف نسمة على الأقل، وكانت الغزلان والنعام والطاووس والببغاوات تنتقل في حديقته. وتعرض صور الحياة في القصر الحافلة بالجواري والضرائر والاغوات، وتصف حياتها فيه. وتقول سالمة: «كان لنا نحن الأطفال الذين تجاوزنا الخامسة درس في ركوب الخيل كل يوم، أوله في الصباح الباكر والثانية في المساء

وكانت البنت المتفوقة في ركوب الخيل تمنح بغلاً عمانياً أبيض مزركشاً بالزينة الغالية ومثقلاً سرجه بالحلى النفسية».

وهو ذات القصر الذي أخذونا إليه عندما زرت جزيرة زنجبار، وشاهدته وقد تحول إلى أطلال، ويوصف من مرافقنا بأنه مكان الشيطان، فهو رمز تلك المرحلة التي تسعى زنجبار إلى التخلص منها، بعد الثورة التي أسقطت آخر السلاطين وبعد انضمام زنجبار إلى تنجانيقا لتقوم تنزانيا. وما زالت التعبئة مستمرة ضد الدولة العربية التي قامت هناك، رغم طعمها العربي الذي تتميز به مآذنها وبيوتها العربية القديمة وأبوابها الخشبية المنقوشة من خشب الساج، يكشف المجد الغابر لهذه الدولة، عندما كان الوصول إلى الساحل الافريقي ميسوراً بالسفن الشراعية التي تدفعها الرياح الموسمية التي تهب على المحيط الهندي فتدفع السفن في رحلتين كل عام، وقامت نتيجة هذه الرحلات هجرات وحضارة خاصة هي مزيج من المحلية الأفريقية والعربية، وتميزت هذه الهجرات بأن الرجال الذين تنقلهم البواخر إلى الجزيرة سريعاً يتزوجون من الافريقيات، وقام مجتمع جديد لم يعد من السهل فيه التمييز بين العرب وغيرهم، وظهرت لغة مزيج من العربية والمحلية، وامتدت هذه الدولة من مقديشيو شمالاً حتى موزمبيق جنوباً.

وتعود سالمة إلى وصف الحياة في زنجبار التاريخ كما تتذكره

فتقول: «كما ان من مظاهر الحياة في الغرب أن تظهر المرأة بالقبعة والقفاز، فإن من مظاهر الحياة في بلادنا أن تتزين المرأة بالحلى والمصوغات إلى درجة أن المتسولات يضعن عليهن حليهن ومصاغهن وهن يقفن في منعطفات الطرق، وكان أبي يحتفظ بكنوز رائعة من الذهب واللؤلؤ والجواهر، إلى جانب العملات الذهبية المختلفة وكانت خزائنه تعج بالمجوهرات النسائية النادرة المثال، من أصغر الأشياء إلى التيجان المرصعة بدرر الماس والاحجار الكريمة، وكانت هذه الكنوز للاهداء والعطاء في نطاق العائلة، وإذا زادت العائلة فرداً جديداً، زوجة كانت أم مولوداً، انفتحت خزائن الكنوز وخرجت الهدايا النفيسة والثمينة التي تليق بالمناسبة ومقام القادم الجديد» وتمضي في وصف المعالم المختلفة للحياة في زنجبار تصف الشعر مثلاً فتقول: «كانت عادتنا نحن البنات الصغيرات أن نجدل شعورنا ضفائر صغيرة تبلغ العشرين ـ وهي الموضة في الغرب هذه الأيام ـ ثم تربط هذه الضفائر بأشرطة رفيعة ملونة، وتجدل نهايتها في ضفيرة واحدة تتدلى من وسطها على ظهورنا القطع الذهبية الدقيقة الصنع من الجواهر النفيسة. أما التسريحة الأجمل فعندما تترك الضفائر ونهايات الاشرطة مدلاة على ظهورنا، وتعلق في نهاية كل ضفيرة قطعة ذهبية».

«استقلال الامير»

وكان بلوغ الأمير مرحلة الرجال امتيازاً يتلهف عليه الفتيان،

فهو يعني تملكه داراً مستقلة وعدداً من خيار الجياد ومكافأة شهرية طول حياته. وتتحدث سالمة عن الهدايا عند العرب، فتقول: «كان كل مودع يحمل معه من هدايا الوداع، ما يتناسب مع مقامه ودرجة عاطفته نحونا. وهدايا الوداع عادة شائعة في بلادنا يقدمها الناس إلى أصدقائهم عند السفر، بل وحتى عند انتهاء الزيارات القصيرة، وما من أحد يستطيع اقناع العربي بالامتناع عن تقديم هدية إلى صديقه المسافر بصرف النظر عن قيمتها».

أما الرسائل، فكان ينقلها الخدم بين المتراسلين، فالناس لم يتعودوا على كتابة الرسائل حتى وان اتقنوا القراءة والكتابة، وإنما يستخدمون خدمهم لتبادل الأخبار بينهم سواء العائلية منها أم الخاصة بأمور الدولة.

وكان من بين العبيد عدد من العدائين الممتازين يستطيعون أن يقطعوا أطول المسافات في يوم واحد، وهؤلاء هم نقلة الرسائل والأخبار من مكان إلى آخر حسب ما يأمرهم به سيدهم. وكم أدت خيانة هؤلاء بدافع الحقد أو الانتقام أو الرشوة والاغراء، إلى هدم صداقات متينة، ونمضي مع الأميرة في بيتها تمارس حياتها، ونتعرف على مجتمعها الذي وصفته في رشاقة وجمال، ثم وهي تنتقل من بيت المونتي إلى بيت الساحل. وأخيراً في بيت أخيها ماجد. وبعدما تعاهدت كل من أم سالمة وأم ماجد على ان ترعى الباقية على قيد الحياة أبناء الأخرى.

قصر الساحل:

وعن قصر الساحل، قصر السلطان في المدينة تقول: «بيت الساحل أصغر من بيت المونتي، إلا أنني أشعر بروح من البهجة والانشراح تغمر المكان، وزادت من بهجته شرفته الجميلة التي تطل على جميع غرف الطابق الثاني، وعلقت في الشرفة المصابيح الملونة، وترى من الشرفة حركة السفن في الميناء ومناظر البحر الخلابة».

أما مطبخ القصر فإن «النظام السائد فيه هو الفوضى والشجار المستمران بين العدد الغفير من الطباخين العاملين فيه، وتهدأ الفوضى لحظات قصار حين يظهر أحد المردة وينهال بالكلمات والصفعات على العاملين، فيستتب النظام برهة قصيرة، ثم ما تلبث الفوضى أن تعود من جديد عندما يختفي الرئيس المارد وتقابل الفوضى الصاخبة في المطبخ وفرة الطعام المنقول إليه، فاللحوم ينقل إليه بالأطنان أما الأسماك فتنقل إليه بعشرات السلال. بالاضافة إلى هذا فغالباً ما يرى المرء السمك الكبير ينقل إلى المطبخ ينوء بحمله أشد الرجال أما الدجاج والبط فيشترى بالعشرات، وتتكدس في المطبخ مئات الأكياس التي تحتوي على السكر والأرز والحنطة. والطحين، وكان الزبد يأتينا من الشمال من جزيرة سوقطرة في قنان زنة الواحدة منها قنطار، والتوابل التي توزن بالجرامات وتفوق كل هذا كمية الفواكه التي يستوردها القصر».

أما حياة الغرائر فتحكى عنها.. «الجواري من زوجات

السلطان نظام طبقي متعارف عليه، فالشركسيات الشقراوات يرفضن الجلوس على مائدة واحدة مع الحبشيات، ونشأ تفاهم ضمني بأن تتخلى كل مجموعة للأخرى عن مكانها، ولا يمتد هذا التمييز إلى أبناء السلطان، فالجميع متساوون، وكانت الأمهات الحبشيات يلقبننا نحن بنات الشركسيات «بالقطط» لزرقة عيوننا.

التعليم:

والتعليم في القصر كان يقتصر على تحفيظ القرآن، فكانت سالمة تجلس مع أبناء وبنات السلطان في الشرفة، ومعهم أطفال البيت من العبيد الذين يصحبون أسيادهم، وكان منهم من يتعلم أسرع من أبناء السلطان، أما تعليم الكتابة للبنات فقد كان محظوراً، ولكن عنادها وإصرارها أوصلاها إلى تعلم الكتابة، فكانت تحاكي حروف القرآن على عظم كتف بعير، وعندما إنكشف الأمر ثارت عليها زوابع اللوم وحملات السخرية، ولكنها مضت في دروسها حتى أتقنتها. «وكان ما نسميه المدرسة مكاناً نائياً في الشرفة يشاركنا فيه الحمام والطاووس. وهناك مدارس عامة في البلدة لأبناء الفقراء، أما القادرون فيستأجرون لأولادهم معلمين، وأحياناً يقع عبء التعليم على عاتق سكرتير أو وكيل أعمال رب العائلة».

أما الملابس «فيستورد السلطان حاجتنا من الثياب مرة واحدة في العام ويوزعها علينا، وكانت حصة المرء تكفيه لعام واحد، وتوزع الأقمشة الغالية باللفات، ويمكن أن يبادل البعض ما عنده بما عند

غيره. ويوزع أيضاً المسك والعنبر وماء الورد والعطور الأوروبية والزعفران، وكذلك الحرير بأنواعه مع خيوط الفضة والذهب للتطريز، والأزرار المطرزة بالذهب، وكل ما يدخل في زينة المرأة العربية ولباسها. وإلى جانب كل هذا كان كل منا يقبض عدداً من الريالات الفضية ـ ماريا تريزا ـ يختلف عددها حسب السن والمقام».

الحداد في البلاد:

وأخيراً تروي سالمة مراسم الحداد بعد وفاة والدها السلطان، وما تفرضه التقاليد من خضوع نساء السلطان الراحل إلى فترة حداد إجبارية تصل إلى أربعة شهور، يقضين هذه المدة في غرف مظلمة ويمتنعن عن رؤية النور، ويعلن القاضي بدء فترة العزلة ببيان يتلوه على الأرملة يذكر فيه ما يجب عليها الامتناع عنه. ويعود هذا القاضي بعد انقضاء هذه الفترة ويتلو بياناً آخر يعلن انتهاء مدة العزلة والذي يتم في مراسم خاصة على الأرملة أن تغتسل على أن تقف الخادمات خلف سيداتهن تحمل كل منهن سيفين تسن نصليهما فوق رأس السيدة، وبعد الاغتسال يباح للمرأة أن تستبدل ملابسها، وأن تستعيد حريتها وتصبح أهلاً لزواج جديد.

والغريب أن ما كان يجري في زنجبار هو ذاته الذي يجري حتى الآن في العديد من الواحات العربية، وشاهدته في إحدى الواحات المصرية، وهي واحة سيوة في صحراء مصر الغربية، بل

ويشترط الاغتسال في أحد العيون الخاصة هناك! .

ولعل ذلك وحدة المذهب بين أهل عمان وبين سكان سيوه، وهو المذهب الأباضي .

ولا نملك أمام هذا الوصف الشيق للجوانب الإجتماعية المختلفة عن الحياة في زنجبار إلا أن نتعاطف مع الأميرة، ربما بجمال وصفها، وربما لدفاعها الساذج عن معالم الحياة العربية ووقوفها خلال المقارنات التي دأبت على ذكرها بين الشرق والغرب، إلى جانب الشرق وتأكيدها الدائم على فضائل طرق حياته .

وقد أعادني وصفها لقصر الساحل إلى زيارتي السابقة لهذا القصر، وعدت إلى ما سبق وسجلته في مذكراتي أستعيد ما شاهدته وما مر بي من تجارب فقد تحول القصر وأصبح يسمى «قصر العجائب» وبات يزدحم باللوحات التي تصف المعاناة التي تعرض لها الرقيق، واللوحات والصور الفوتوغرافية التي تمثل سوق العبيد كما وصفه توماس الذي زار زنجبار عام ١٨١١ . وقد اصطحبونا عقب زيارة القصر إلى تلك الكنيسة القديمة المقامة في أحد الميادين القريبة من القصر، وهناك تحدث المرافق بحفاوة وتكريم عن ليفنجستون بوصفه صاحب الحملة التي قضت على سوق الرقيق وتحول البيت الذي كان يسكنه إلى متحف، ويكمل المرافق: «هنا كانت سوق الرقيق التي أغلقت في يونيو عام ١٨٨٢ ، وأقيمت على موقعها هذه الكنيسة» .

أما هذا التحول الذي تشهده الجزيرة رغم أن أهلها يعتنقون الإسلام فسببه تلك العاصفة الهوجاء، ونتيجة التوتر العنصري وصراع اللون والثروة الذي شهدته الجزيرة عام ١٩٦٤ والذي أشعل أواره الاستعمار البريطاني قبل رحيله، وأطاح بآخر السلاطين جمشيد بن عبد الله، وانتهى حكم أسرة بوسعيد في زنجبار.

وبعد. هذه هي قصة العلاقة بين الشرق والغرب، أو بالأحرى أحد فصولها ليس في جانبها الثقافي والسياسي فحسب، بل وفي جانبها الإنساني أيضاً، وكانت سالمة أول وأبرز ضحايا هذا الصراع.

السلطان برغش بن سعيد

سلطان عمان وزنجبار –

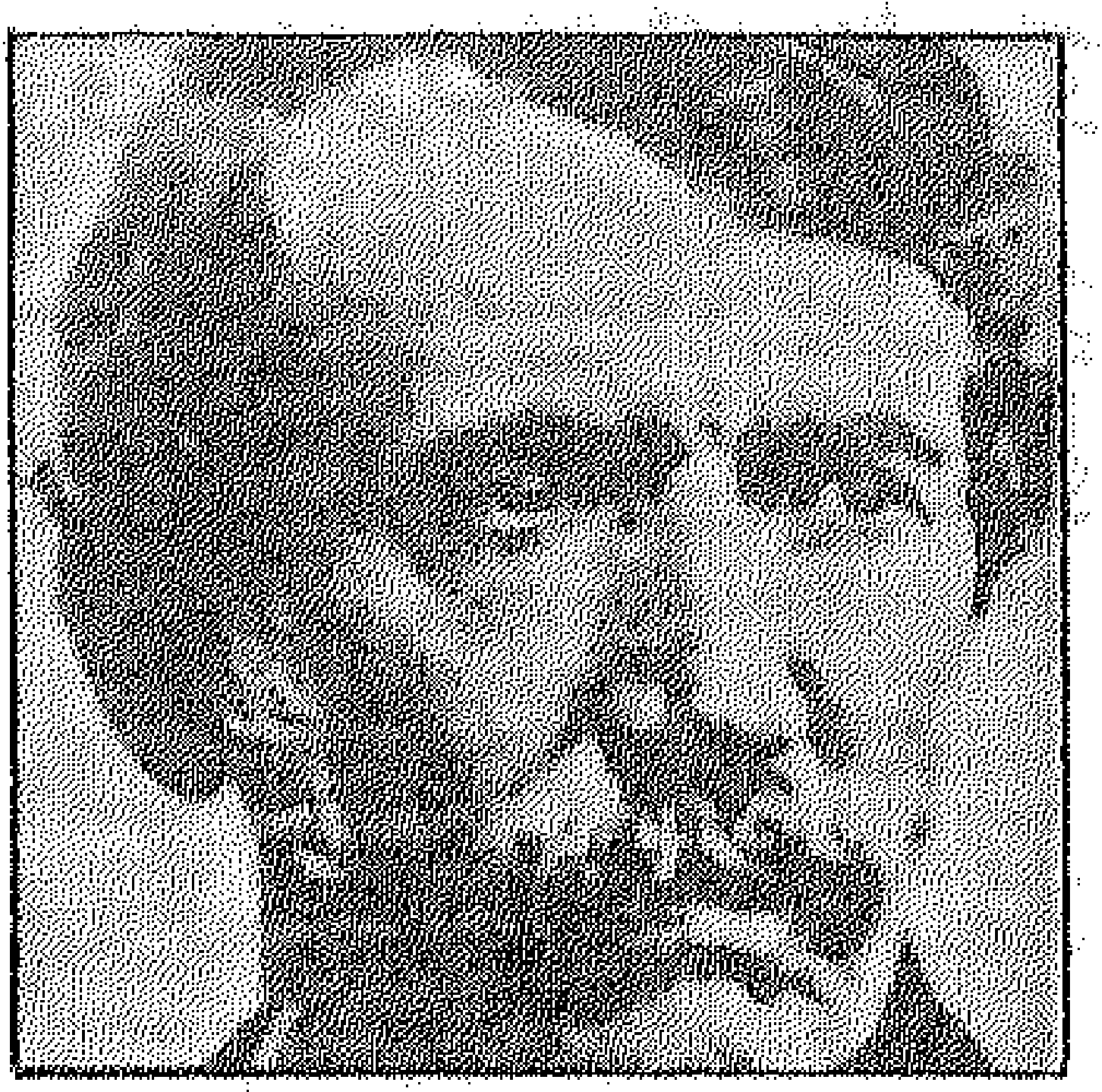

دكتور ديفيد لفينجستون

قصر العجائب

سالمة بنت السيد سعيد او الأميرة اميلي روث

قصة أول معاهدة عربية ـ أميركية
«سلطانة» من عمان
في بلاد الأميركان

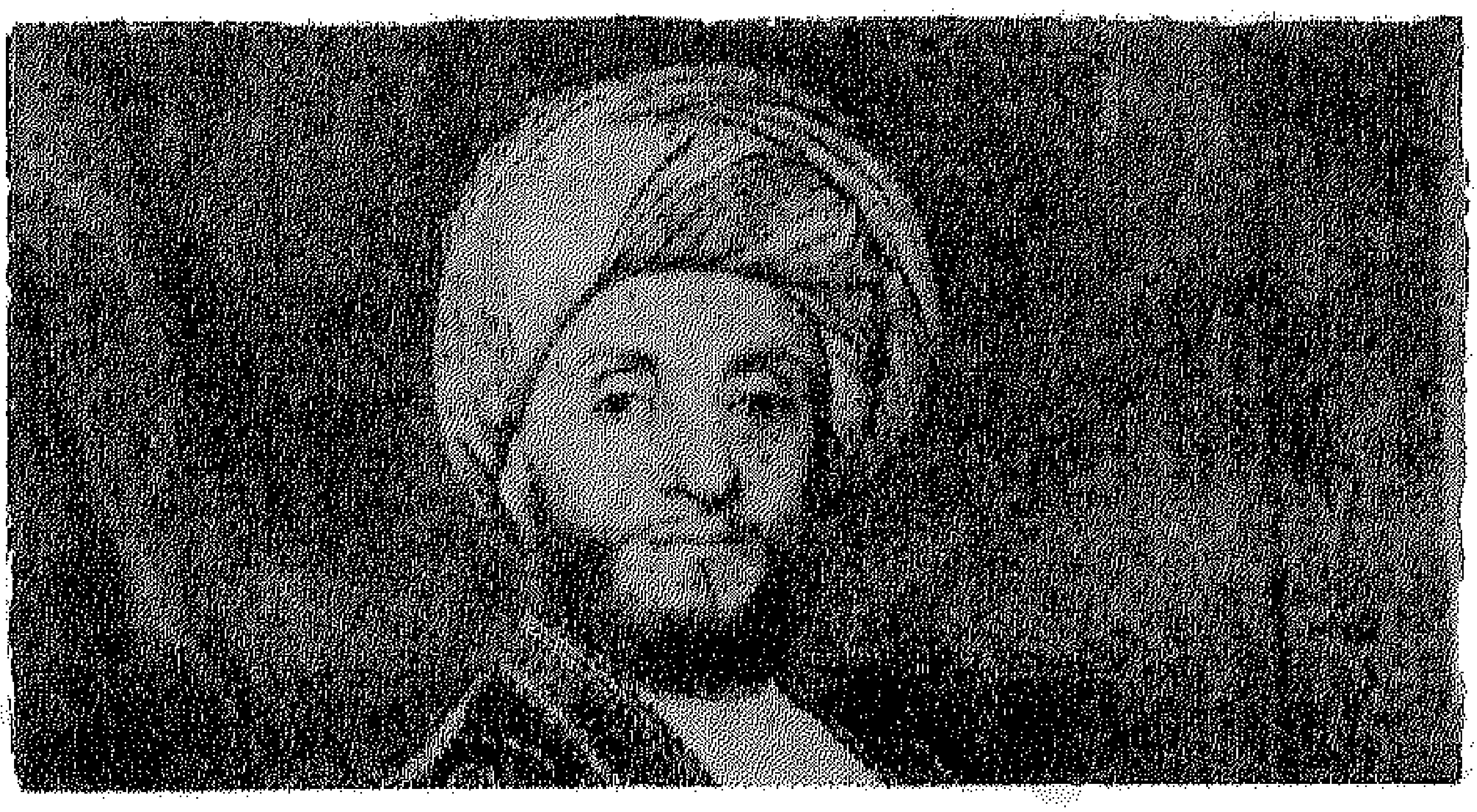

ماذا يحدث إذا تأملت واقعة قديمة من مئات الوقائع التي يحفل بها التاريخ واقتربت منها، وجمعت شتاتها من مصادر مختلفة، وأعدت ترتيبها، ووضعتها في سياقها؟ إنك حينئذ تنقل عصراً بأكمله، بشخوصه، وألوانه، وأزيائه ومعتقداته، وترى الواقعة التاريخية بعين جديدة وهذا بالضبط ما حاول أن يفعله هيرمان آيلتس السفير الأميركي السابق في القاهرة، مع رحلة أول وفد عربي وصل إلى نيويورك عام ١٨٤٠ على متن السفينة العمانية «سلطانة».

لدى زيارتي الأخيرة لمسقط ، شاهدت في آخر خليج الميناء إحدى البواخر القديمة المتهالكة، جانحة هناك، وحولها منظر خلاب عناصره زرقة المياه والبيوت العمانية المطرزة. ويقول أبناء مسقط عن هذه الباخرة الجانحة أنها «سلطانة» التي نقلت أول بعثة عمانية ألى نيويورك بعدما اجتازت لأول مرة في تاريخ البحرية العمانية رأس الرجاء الصالح والمحيط الأطلسي. وقد وقفت طويلاً أتأملها وتمنيت أن تتاح لي فرصة تحقيق هذه الواقعة التاريخية. وعندما تلقيت كتاب آيلتس والتفاصيل الشيقة التي جمعها، احتفيت به باعتباره يقدم جزءاً من التاريخ .

ووصول «سلطانة» إلى ميناء نيويورك هو اللقطة الأولى التي يصفها آيلتس، بعد جمع مادتها مما نشرته الصحف الأميركية، ومن محاضر الكونجرس الأميركي، ومن بعض المخطوطات العربية، وحتى من «كشف حساب» رحلة الباخرة سلطانة.

مع خيوط الصباح الأولى يوم الخميس ٣٠ نيسان (أبريل) ١٨٤٠، ظهرت في الأفق سفينة تتمايل فوق سطح الميناء، كانت قد أبحرت من زنجبار متجهة إلى نيويورك منذ سبعة وثمانين يوماً، ودخلت الميناء وغاطسها منخفض تحت الماء من ثقل البضائع التي تحملها، وهي سفينة ذات طابع غير مألوف، حمولتها ٣٥٠ طناً ذات سطح يرتفع عند المؤخرة، وجسمها مصنوع من خشب التك، وأعمدتها صغيرة قصيرة رشيقة، وقمراتها مطلية باللون العاجي، وفيها أماكن لأربع عشر مدفعاً فهي تستخدم أحياناً كسفينة حربية. وتظهر علامات الانهاك على كل مكان فوق ظهرها، وتحت المظلة جوادان أنهكتهما الرحلة، الأشرعة ممزقة، وفوق السفينة ستة وخمسون من الرجال الأشداء، لحاهم مطلقة غير مشذبة بعد هذه الرحلة الطويلة. هذه هي سلطانة أفضل السفن التي يملكها السلطان سعيد، وهي أحدث وأسرع سفن الأسطول العماني. وأطلق عليها السلطان اسم زوجته سلطانة عزة بنت الأمير حاكم شيراز، اعتزازاً بها.

أما طاقم السفينة، فكان الملاحون جميعاً ـ عدا اثنين من

الفرنسيين ـ من عسكر البحارة المسلمين الذين جلبوا من سواحل الهند. ويغلب عليهم سواد البشرة، ومنهم العديد من «رقيق» الضباط الذين أتوا بهم على ظهر السفينة ليتقاضوا أجرهم بدلاً منهم!.

وتهب من السفينة رائحة نفاذة لم تستطع ريح البحر المالح أن تزيلها، هي مزيج من عطر القرنفل ورائحة الصمغ، والبن التي تفوح من مخازنها، وقد اختلطت برائحة القار الآتية من أسفلها يغلبها رائحة جوز الهند النفاذة.

وقاد سلطانة بحار بريطاني اسمه ويليام سليمان الذي قضى الرحلة بطولها مستلقياً على فراشه لا يفيق من شدة السكر. وكان قائد السفينة الفعلي الضابط العربي محمد جمعة الذي تقدمه وقائع الرحلة نموذجاً لشاب عربي شجاع ويقظ ولماح.

وجذبت «سلطانة» اهتمام الأميركيين المولعين بالغرائب، فالسفينة كانت تحمل ضمن ركابها سيدتين انجليزيتين جاءتا من مسقط في طريق عودتهما إلى انجلترا، ووسط هذه المجموعة كانت هناك شخصية كبيرة، رجل عربي بدين قصير، ذو لحية طويلة وبشرة قمحية وعينين نافذتين، هو أحمد بن نعمان مبعوث السلطان أدهش رجال الميناء بحديثه بانجليزية واضحة، معلناً لهم أنه «ريس» هذه السفينة وأنه الممثل الشحصي لسعيد بن سلطان حاكم مسقط وزنجبار وتوابعها، وأنه قطع رحلة طويلة حول نصف الكرة

الأرضية ممثلاً للحاكم في بعثة تجارية ومهمة خاصة للتعبير عن الرغبة في الصداقة والسلام مع الولايات المتحدة.

العلاقات الثنائية:

وقبل متابعة حكاية أول سفينة عربية تصل أميركا للزيارة والتجارة، نتوقف قليلاً مع بداية العلاقات التجارية بين الولايات المتحدة والسلطان سعيد، الذي كان يحكم في العشرينات الأولى من القرن التاسع عشر بلاداً واسعة تمتد من عمان إلى زنجبار ومومباسا في شرق أفريقيا. والذي تولى الحكم لمدة اثنين وخمسين عاماً (١٨٠٤ - ١٨٥٦ م/ ١٢١٩ - ١٢٧٣ هـ) وكانت فترة حكمه مرحلة بالغة الصعوبة، ففي هده المرحلة اندفعت الدول الأوروبية في منافسة استعمارية ضارية، وكان العالم العربي خلالها يخضع للهيمنة العثمانية، يعيش على مجد غابر ويعاني عجزاً في مواجهة الظاهرة الاستعمارية المحصنة بنتائج الثورة الصناعية من أسلحة الدمار.

وعندما كان سعيد في الرابعة عشرة من عمره كانت السيدة موزة عمته هي التي تتولى مقاليد الحكم، واستطاعت بقوة شخصيتها وحنكتها أن تحتفظ لسعيد بملك أبيها حتى كبر، وكان سعيد معاصراً لمحمد علي باشا والي مصر، وكان مثله حاكماً قوياً فرض شخصيته على مسرح الأحداث، وأخضع ساحل شرق أفريقيا لسلطة سياسية موحدة، واتخذ من جزيرة زنجبار عاصمة

الدولة العربية الأفريقية في عام ١٨٣٢ ، وأقام دولة عربية تمتد بين آسيا وأفريقيا، وكانت دولته تتكون من سواحل طويلة وجزر متناثرة ولا بد لها من قوة بحرية، فأقام سعيد أسطولاً عربياً على طراز حديث، فكان أكبر أسطول محلي تملكه دولة آسيوية على سواحل المحيط الهندي.

وتميزت فترة حكمه بالضغوط الاستعمارية المختلفة، وواجه هذه الضغوط ببعض الوسائل التي ما زالت متبعة حتى اليوم، عن طريق السعي للتحالف مع الدول التي تهدد، والرضوخ لبعض شروطها، فلعل ذلك يقلل من تهديداتها وهو في سعي دائب للبحث عن حلفاء جدد. . وقد عقد سعيد معاهدة صداقة بين فرنسا ومسقط عام ١٨٠٧ ، ولكنها لم تدم طويلاً بعدما نجحت بريطانيا في إخراج فرنسا من جزر موريشيوس، كما حافظ على علاقاته مع بريطانيا طوال عهده، وكان لتدخلها المباشر ضد القواسم، وتأييدها غير المباشر لسعيد ضد الوهابيين يخدمان مصالح سعيد. وقد أهدى سعيد للملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا جزر كوريا موريا لتكون ملكاً لها في ١٤ (يوليو) عام ١٨٥٤!.

وكانت أكبر هموم السلطان تتركز في مومباسا التي يسيطر عليها خصومه ويتحدون سلطته، كما كان يهدف إلى طرد البرتغاليين من موزمبيق، وهداه تفكيره إلى أن يولي وجهه شطر قوة تجارية وسياسية دولية جديدة هي الولايات المتحدة فقد كان يسعى إلى كسب

تأييدها السياسي. أما الولايات المتحدة، القوة الجديدة البازغة، فقد كانت تسعى من ناحيتها إلى فتح أسواق جديدة، وبدأت تهتم بالتجارة في غرب المحيط الهندي منذ عام ١٨٢١، وفي (يوليو) عام ١٨٢٥ رست لها أول سفينة في زنجبار آتية من «سيلم».

ونعود إلى قصة آيلتس، فعندما أخذ آيلتس يقلب صفحات قصة «سلطانة» كان في هذا الوقت يعد نفسه للعمل كدبلوماسي أميركي في المنطقة العربية، وكان لكل معلومة جديدة يطلع عليها معنى خاص، وفي المقابل يرى القارىء العربي مغزى خاص للقصة كلها.

بدأت قصة «سلطانة» بلقاء غاضب في زنجبار بين السلطان سعيد وروبرتس قائد السفينة «ماري آن» التي وصلت زنجبار، عندما كان يشكو قائد السفينة من سوء المعاملة التي واجهتها السفينة الأميركية عندما أرغمت على دفع ضريبة تبلغ قيمتها سبعة ونصف في المائة مقابل الخمسة في المائة التي يدفعها البريطانيين، كما تم تفتيش السفينة بشيء من التعنت، فضلاً عما دفعته من عملات لرسوها في الميناء، وقد حرص السلطان على أن يلتقي بروبرتس بعد أن يدفع الرسوم التي طلبت من باخرته!

وهكذا تم اللقاء بين رجلين لكل منهما دوافع مختلفة، فالسلطان يبحث عن حلفاء جدد يمدونه بالسلاح عن طريق غير بريطانيا وبدون علمها، وروبرتس يبحث عن أسواق جديدة.

وأغرت الفكرة السلطان الذي كان يحتكر التجارة ويتبع نظاماً شبيهاً بنظام الالتزام في مصر محمد علي، فكان يستدعي عدداً من التجار، ويوزع بينهم ما يستورده بكميات تناسب مع حجم نشاط كل منهم، ثم يسدد كل منهم قيمة البضائع مضافاً إليها ٢٠ أو ٢٥ في المائة أرباحاً، وطلب السلطان من روبرتس أن يبلغ حكومة الولايات المتحدة استعداده لعقد اتفاقية تجارية.

وبعد هذا اللقاء عاد روبرتس إلى الولايات المتحدة، يبشر بفكرة المعاهدة ويسعى إلى تحقيقها مستخدماً نفوذ صهره عضو مجلس الشيوخ الأميركي، وقد وجد صعوبة في أول الأمر، فمسقط وزنجبار كانتا غير معروفتين لمعظم الأميركيين، كما أن المجتمع الأميركي الذي تسوده المنافسة الضاريه خلق عقبات جديدة أمام روبرتس. «فكان في إمكان رجال مدينة سيلم أن يقدموا معرفتهم، ولكنهم اختاروا الصمت، حتى لا يشجعوا المنافسين على التعامل مع تلك المناطق».

وبعد محاولات شاقة تمكن صهر روبرتس عام ١٨٣١ من تكليفه بمهمة تجارية إلى كل من سيام (سيرالانكا) والهند الصينية واليابان، وشملت المهمة الدول العربية في الجزيرة العربية وعلى سواحل البحر الأحمر، وتحددت المهمة بالسعي لعقد معاهدات واتفاقيات مع دول هذه المناطق، وحمل روبرتس معه توقيع الرئيس الأميركي جاكسون على رسالة إلى السيد سعيد معبراً فيها عن رغبة

الولايات المتحدة في عقد معاهدة بين بلديهما، ووصل روبرتس إلى مسقط في (سبتمبر) عام ١٨٣٣.

ولم يجد الموفد صعوبة في الوصول إلى إتفاق مع السلطان يتضمن أن تكون تعريفة الاستيراد في الموانىء التابعة للسلطان خمسة في المائة، كما نص الاتفاق على بعض الامتيازات الخاصة للتجارة الأميركية. وفجأة ظهرت مشكلة «تواصل» بين الطرفين المتفاوضين عندما اكتشف اختلافاً بين النصين العربي والانكليزي بسبب أخطاء في الترجمة، وأمكن حله وأصبحت المعاهدة معدة للتوقيع.

وغادر روبرتس وهو يحمل خطاباً من السلطان موجهاً إلى «فخامة رئيس الولايات المتحدة، القوي، المعظم، الذي ملأ حديثه العالم كله» كما حمل نص المعاهدة التي تقول: «إن الصداقة ستبقى قائمة.. وإلى الأبد وإلى أن تتوقف الشمس والقمر عن دورتهما في الفلك»!

وتم التصديق على المعاهدة في الولايات المتحدة في ٣٠ (يونيو) ١٨٣٤ وأرسل روبرتس إلى مسقط مرة أخرى لتبادل وثائق التصديق، وأصبحت الملاءات القطنية والآنية المنزلية والبنادق والبارود ومستلزمات بناء السفن والساعات والأحذية والتوابل تستورد من أميركا، بينما كانت السفن تحمل من زنجبار إلى أميركا الصمغ وجوز الهند والقرنفل والعاج. وانتعشت التجارة، فمثلاً بلغ مجموع السفن الأجنبية التي رست في ميناء زنجبار في الفترة من

(سبتمبر) ١٨٣٢ وحتى (مايو) ١٨٣٤ إحدى وأربعين سفينة، كان من بينها ٣٢ سفينة أميركية وسبع سفن بريطانية وواحدة فقط من كل من فرنسا وإسبانيا، وعينت أميركا قنصلاً تجارياً لزنجبار ومسقط هو ريتشارد بالمر ووترز.

ولم يغب عن بال سعيد أن المستفيد الأول من التبادل التجاري هو الولايات المتحدة التي تعمل بواخرها بين موانىء كلا البلدين. وفكر في أن يرسل إحدى بواخره إلى أميركا، يؤيد هذه الفكرة أسطوله الذي يزيد عن عشرين سفينة تجوب المحيط الهندي تنقل البضائع في أوقات السلم. وتدافع عن شواطئه خلال الحرب.

وفي أوائل (أغسطس) عام ١٨٣٩ أعلن السلطان عن نيته إرسال «سلطانة» إلى نيويورك وازداد شوقه في أن تنجح البعثة في مهمتها وتثير اهتمام وإعجاب الأميركيين. واختار للقيام بهذه المهمة سكرتيره الخاص أحمد نعمان، الذي حاز على اهتمام الأميركيين بالفعل، والذي كان قد التحق بخدمة السيد سعيد منذ أوائل العشرينات. وسافر في مهمات مماثلة إلى كل من الصين ومصر وبعض البلدان الأوروبية.

واستغرقت «سلطانة» في ميناء مسقط من ١٦ إلى ٢٣ (ديسمبر) وهي تشحن بالبضائع ثم أبحرت إلى زنجبار لتحمل مزيداً من البضائع، وبدأت رحلتها عبر رأس الرجاء الصالح والمحيط الأطلسي في أوائل (فبراير) عام ١٨٤٠.

نيويورك ١٨٤٠:

كانت نيويورك عندما وصلتها «سلطانة» عام ١٨٤٠ مدينة فتية بهيجة صاخبة تموج بالنشاط والحيويه، تضاعف عدد سكانها خلال العشر سنوات الأخيرة من وصول «سلطانة»، وكانت صحافة نيويورك في قمة نشاطها وحيويتها، ووجدت في وصول مبعوث السلطان مادة مثيرة وجديدة لقرائها، ومما ذكرته صحافة نيويورك أن بعض أهالي المدينة وجدوا في حضور أحمد نعمان إثارة تفوق إثارة زيارة الراقص النمسوي وحتى جولات الهولنديين بسراويلهم القصيرة في حفلات الرقص، ونشرت جريدة «البوست» المسائية أنباء عن المساعدة التي سبق وقدمها السلطان للسفينة الأميركية «بيكوك» عندما جنحت قرب شواطئه، وذكرت أنه لا يوجد في العالم المسيحي من يتصف بالاخلاقيات السامية مثل ما ظهر في هذا العون من جانب حاكم مسقط التي أصبح العالم ينظر إليها بإعجاب وتقدير، وذكرت صحف نيويورك، أنه يجب تقديم كافة التسهيلات الممكنة من جانب الحكومة للبعثة الأولى التي أرسلها الحاكم العربي للتجارة مع العالم الجديد، كما ينبغي أن تقدم التسهيلات اللائقة بما قوبل به الأميركيون من معاملة حسنة في بلاده، وما غمروا به من كرم عربي سخي.

واستجابت نيويورك ورحبت بمبعوث السلطان على طريقتها، ونشرت الصحف أنه تردد أنه بين الهدايا التي أرسلها السلطان إلى

الرئيس الأميركي جاريتين شركسيتين تتميزان بجمال فائق، وذلك عندما ظهرت السيدتان الانجليزيتان جوار قمرتها، ووجدت بعض الصحف في هذه المسألة فرصة لشن هجوم لاذع عندما شبهت السلطان بمارتن الأول الذي اشتهر بتجارة الرقيق الأبيض، وتساءلت بعض الصحف حول ما يمكن أن تفعله الإدارة الأميركية بهاتين الجاريتين، وطالبت إحدى الصحف ـ ساخرة ـ بأن يبني الكونجرس جناحاً خاصاً تودع فيه هذه الهدايا من الفتيات الفاتنات، وشغل هذا الموضوع القراء أكثر من أي موضوع سواه، ولعل هذه الحملة تكشف أبعاد تلك الصورة التي كونها المواطن الأميركي عن العرب منذ القرن الماضي، وهي جزء من صورة «العربي» عند الغرب رغم ما فيها من عسف وخيال، وأسفرت الحملة عن أن عمدة نيويورك بدأ يتخذ ترتيبات لابعاد سكان المدينة عن السفينة وتعيين أثنين من رجال الشرطة لهذا الغرض.

ولكن الفضول دفع بالبعض إلى الاقتراب من البحارة وتحسس لحاهم ليتأكدوا من أنها ليست مستعارة، ونشرت صحيفة «الهيرالد» رد فعل الوفد بقولها: «كان العرب ينظرون حولهم، ويبرمون شواربهم وهم في دهشة من نظرات التعجب التي تبدو على وجوه الأميركيين» ومن أغرب ما نقلته الصحف عن هذه الزيارة وصف لأول حفل رسمي أقيم لأحمد بن نعمان ومرافقيه عندما جاء المبعوث الرسمي حافياً، قالت: «كان العرب في ثيابهم الطويلة الخضراء اللون المقفلة بزرارير حتى العنق، ولوحظ أن أحمد وعبد الله كانا

حافيين أما جمعة فقد كان يلبس حذاء جلدياً من الأحدية الواردة الى زنجبار من أميركا، ورغم أن أحمد قد أصيب بتورم وألم في قدمه بعد وصوله بأيام قليلة، إلا أنه كان بادي الحيوية، بينما كان يبدو على جمعة شيء من الخجل والحياء».

وتمضي تعليقات الصحف الأميركية فتذكر أن عبد الله وجمعة يتكلمان لغة إنجليزيه ركيكة مما أفشل جميع المحاولات لجرهم ألى الحديث، أما أحمد فقد حظي بإعجاب الجميع لرقته وعذوبة حديثه، ولقي جمعة إعجاباً خاصاً لما فيه من سذاجة وذكاء معاً، وعندما سئل أحمد عن رأيه في المرأة الأميركية ومقارنتها بالمرأة العربية تصدى للدفاع عن المرأة العربية بأدب ورقة. وذكرت الصحف أن الضابط الثاني حمعة قد أظهر اهتماماً كبيراً بما حوله، وأمدته زوجة أحد العمداء البحريين بالكتب كما كانت تقضي أوقاتاً طويلة في تدريسه. وعندما غادرت «سلطانة» ميناء نيويورك، كان حمعة يقرأ الانجليزية بطلاقة ويكتبها بخط واضح.

ومن الفصول الشيقة التي يقدمها آيلتس، ما أثارته هدايا سلطان عمان من انقسام حاد في الرأي العام الأميركي، وكيف أن هذه الهدايا مع هدايا سلطان مراكش كانت السبب في إصدار تشريع ينظم قبول الرئيس الهدايا لصالح الخزانة العامة. علماً بأن هذه الأحداث وقعت قبل ظهور النفط بزمن طويل!

فكان ضمن المهام المكلف بها مبعوث السلطان، تسليم رسائل

وهـدايا إلى الـرئيس الأميركي. وتضمنت هـذه الهدايـا فرسـين من فرسان السباق النجدية، وسيفاً مطعماً بالذهب، وعقـداً من اللؤلؤ، وحبتين كبيرتين من اللؤلؤ يصل حجم كـل منهما إلى حجم الكمثري الكبيرة (كذا) وحـوالي ١٢٠ قطعـة من الأحجار الكـريمة يبلغ وزنها ١٨,٢٥ قيـراطاً، وسبيكـة من الذهب الخـالص، وسجادة عجمي حريرية الصنع، وزجاجة من عطر الورد، وست عباءات كشميريـة مطرزة، على أن القـانون الأميـركي لا يجيز للرئيس قبـول الهدايـا، وإذا ردت هذه الهدايـا للسلطان فيمكن أن يفسرهـا بأنها «مـوقف» موجه ضده.

ودار حـوار داخل الإدارة الأميـركيـة وتلقى أحمـد رسـالـة بـأن الرئيس يود معرفة موعد مغادرة «سلطانة» حتى يكتب بنفسه رداً إلى صـديقه السلطان. وجـاء في خطاب الـرئيس الأميركي ألى مبعـوث السلطان: «لقد كان من دواعي السرور والرضى أن يقوم بين عمان والـولايات المتحـدة مـا نـوده دائـماً من صـلات مفيـدة في مجـالات متعـددة، وأن وصـول سفينـة تحمـل علم بـلادكم ودخـولهـا مينـاء نيويورك لشـاهد عـلى الرغبـة في إقامـة هذه العـلاقات التي نـود أن تستمـر بين بلدينـا وتدوم «وأشـار الخطاب إلى أن الـرئيس باعتبـاره موظفاً في الدولة لا يستـطيع أن يقبـل الهدايـا القيمة، وأعـرب عن تمنيـاته الـطيبة بـالصحة والسعـادة لجلالـة السلطان، والقوة والمتعـة لحكومة عمان. والسعادة والاستقرار لشعبها.

وكان من الصعب على أحمد أن يعود بالهدايا إلى زنجبار وخاصة الخيول فكتب إلى السكرتير العام للإدارة الأميركية فورسيت وأبلغه أنه سوف يقدم خطاب الرئيس إلى السلطان عند العودة، وأوصح أن السلطان لم يكن على علم بالصعاب المتعلقة بقبول الهدايا، ويرجو أن تعتبر الهدايا مقدمة إلى حكومة الولايات المتحدة.

وتواكبت مع هدايا السلطان هدايا عربية أخرى أرسلها سلطان مراكش وتتكون من أسدين هدية للرئيس الأميركي، وقرر الرئيس أن يبعث «بالموضوع» إلى الكونجرس مقترحاً أن يصدر تشريعاً ينظم هدا الأمر.

وأين هدايا السلطان الآن التي أثارت كل هده الضجة، ومادا كان مصيرها؟ إن معظم الهدايا ما زالت موجودة في متحف الولايات المتحدة الوطني، وهي جزء من مقتنياته، إلا أن السيف قد اختفى، وزجاجات العطر تبخرت، وبقيت السجادة العجمية الحريرية محفوظة عند زوجة الرئيس الأميركي فان يورين، وسجل عليها «أن هذه السجادة مهداة من الرئيس الأميركي إلى زوجته»!!

من المستفيد:

لم تحقق رحلة «سلطانة» النتائج التجارية التي كان يتوقعها سعيد، وإذا عدنا إلى كشف حساب الرحلة الذي عثر عليه آيلتس

لدى الشيخ سليمان عبد الله شيباني في زنجبار، وجدنا أن البضائع التي حملتها «سلطانة» إلى نيويورك تشمل ١٣٠٠ جوال من التمر و ٢١ بالة من السجاد العجمي، و ١٠٠ بالة من بن المخا و ١٠٨ قطعة من سن فيل، و ٨١ حقيبة من الصمغ، و ١٣٥ كيساً من القرنفل، وألف قطعة جلد مجففة غير مدموغة، ومعظم هذه البضائع كانت مألوفة في السوق الأميركية عدا السجاد العجمي الذي وصل لأول مرة.

تم تسويق أغلب المنتجات بسهولة، أما البن والسجاد العجمي والجلود فقد كانت بضاعة شبه راكدة وبقي بعضها حتى قبيل رحيل «سلطانة» وبيعت بعد تخفيض أسعارها ووصلت السجادة إلى ثمن يتراوح بين (٥,٥) و (٦) دولارات وبلغ مجموع مبيعات «سلطانة» ٢٦ ألفاً و ١٥٧ دولاراً.

وفي الوقت نفسه عادت «سلطانة» بالأصناف التالية: ١٢٥ بالة من القماش الذي يعرف في زنجبار باسم «ميركاني» و ١٣ كيساً من الخرز الأحمر والأبيض والأزرق و ٢٠ دستة من لوحات الطباعة و ٣٠٠ بندقية و ٢٥ كيساً من البارود، وكمية من الأواني المنزلية، وبلغت حملة هذه المشتريات ١١١٧٧,٥٦ دولاراً، مضافة إليها مجموعة من المشتريات للسلطان ونجله، وتشمل أربع بنادق مزخرفة تكلفت الواحدة نحو ٧٠ دولاراً، وكمية كبيرة من الشمع، وعدة صناديق من خيوط الذهب، و ٢٠ رزمة من ورق الكتابة، وخمسين

صندوقاً من أواني الزهور وصندوقاً من زجاجات العطر، وعشر علب موسيقية وبعض الصابون الأحمر، وكمية مختارة من الزجاج الخاص، وأطباق الخزف والمرايا، بالاضافة إلى عدد من صناديق الحلوى واللوز وشراب الأناناس والبرتقال، وكيساً من الفواكه المسكرة، بلغت قيمتها ٣٦٨١,٢٥ دولاراً.

وبلغت تكاليف الرحلة ٦١٧٩ دولاراً، علاوة على المواد الغذائية التي حملتها ويمثل هذا المبلغ ٢٤ في المائة من قيمة مبيعات البضائع التي نقلتها «سلطانة» من نيويورك، والمدهش أن بعض المصروفات التي أنفقتها السفينة كانت من نوع الخدمات والعمولات التي أصر التجار الأميركيون على استبعادها في زنجبار وفقاً للمعاهدة المعقودة بين البلدين، مثل رسوم الإرشاد داخل الميناء، ورسوم الوزن، وغيرها من الرسوم التي لم تعف منها «سلطانة» في ميناء نيويورك رغم أنف الاتفاقية، وبعدما سقط من الذاكرة الأميركية الموقف الغاضب الذي وقفه روبرتس في زنجبار وانتهى بعقد الاتفاقية.

ولم يجد السلطان سعيد ما يشجعه على تكرار هذه الرحلة، وبقيت التجارة في أيدي تجار أميركا، وأبلغ السلطان القنصل الأميركي عدم رضاه عن الضرائب والرسوم التي تم تحصيلها في نيويورك. ويذكر آيلتس أن السفينة سددت ما يعادل ٢٩٠,٧٠ دولاراً إلى توكيل السفن وحده.

وكانت أميركا هي الطرف المستفيد اقتصادياً من أول اتفاقية تعقدها مع العالم العربي.

إذن، لعل الفوائد التي جنتها مسقط من الاتفاقية هي فوائد سياسية، مثل حصولها على ما تحتاجه من البنادق والبارود، ولكن هذه المشتريات كانت تتم على أسس تجارية بحتة، بل ونجد أن الولايات المتحدة قد اعتذرت عن أي دور سياسي واكتفت بمكاسبها التجارية.

وكان أثر التدخل الأوروبي والبريطاني على مسقط وزنجبار بعد موت السلطان سعيد أكبر بكثير منه في أية دولة إسلامية أخرى، إذ أنه انتهى بإزالة معالم هذه السلطنة في معظم المناطق التي كانت تسودها، ولم تجد العلاقات العمانية الأميركية نفعاً، ولم ينفع مسقط أيضاً أنها كانت أول دولة عربية تعقد معاهدة رسمية مع أميركا.

وأخيراً من حقنا أن نتساءل: هل ثمة علاقة بين اتصال أميركا المبكر بكل من مسقط ومراكش وبين وقوعها على أهم الممرات الدولية عند كل من مضيق هرمز وجبل طارق، أم أن ذلك مجرد مصادفة تاريخية؟! رغم أنه لا وجود للمصادفات في العلاقات الدولية. !

رحلة العودة:

غادرت «سلطانة» ميناء نيويورك في ٩ (أغسطس) بقبطان

أميركي جديد بعدما تمت أعمال صيانتها في أحواض البحرية الأميركية، وبعدما حملت بالبضائع والهدايا للسلطان سعيد، وأهم هذه الهدايا زورق صنع خصيصاً للسلطان، من أرق أنواع خشب السدر طليت جوانبه بأحسن أنواع الطلاء، وغطيت إطاراته وفتحاته بمعدن فضي لامع، وقيل أنه تكلف ألفي دولار، وصنع له صندوق معدني لربطه بالسفينة ومنع الصدأ وتسرب المياه إليه، بالإضافة إلى مجموعة من الأسلحة النارية، منها أربعة مسدسات مقابضها من الموجني، المطعم بالصدف، وثماني بنادق من خشب الموجني السوداء، ونقشت على الأسلحة عبارة «هدية من رئيس الولايات المتحدة إلى أمام مسقط»، ولم تكن اليدان المتصافحتان مع العلم الأميركي قد عرفتا بعد، ومن سوء الحظ أن هبت عاصفة على ميناء نيويورك قبل رحيل السفينة، وسقطت صاعقة وصلت إلى الصندوق المعدني الذي وضع فيه القارب الهدية فشقته نصفين.

وبعد عدة أشهر من إقلاعها، وفي الثامن من ديسمبر وعند الظهيرة، ألقت «سلطانة» مراسيها في خليج أمام قصر السلطان سعيد في زنجبار، وكانت رحلتها هي أول وآخر رحلة تقوم بها سفينة تحمل علم عمان وزنجبار القرمزي اللون إلى سواحل أميركا.

أما مصير «سلطانة» فيقول أهل مسقط، إنها هي داتها الباخرة

الجانحة في ميناء مسقط ، ويقول آيلتس أنها غرقت وابتلعتها المياه في آخر رحلاتها.

أليس هذا تعبيراً عن الفجوة التي ما زالت قائمة بين ما يمكن أن تسمعه في مسقط ، وما يصدر عن واشنطن؟

. . . يقولون أن العرب سبقوا كولومبوس إلى إكتشاف العالم الجديد، وهو قول صحيح إذا كان يعني اكتشاف اخلاقيات وقيم المجتمع الأميركي.

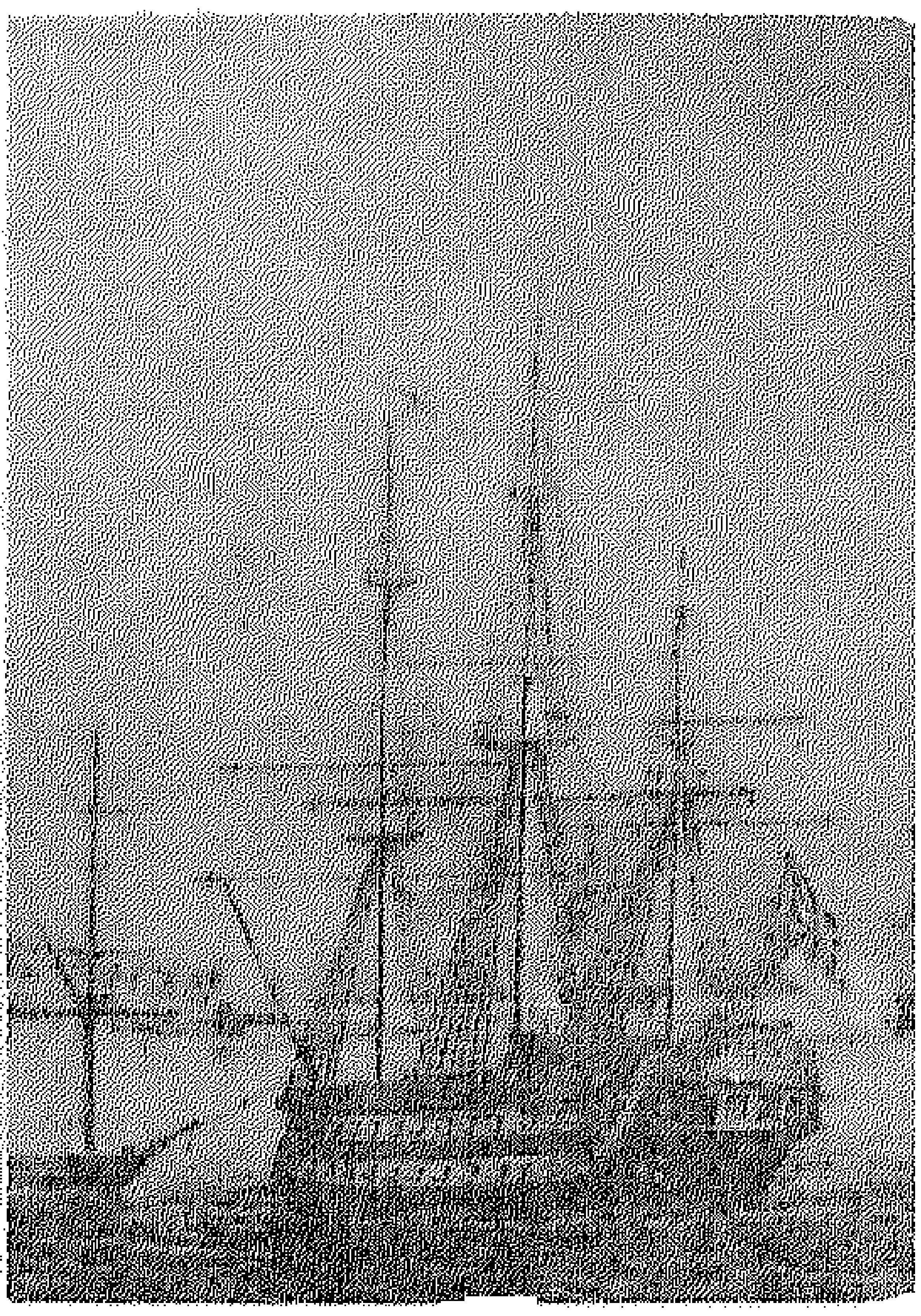

السفينة الجانحة

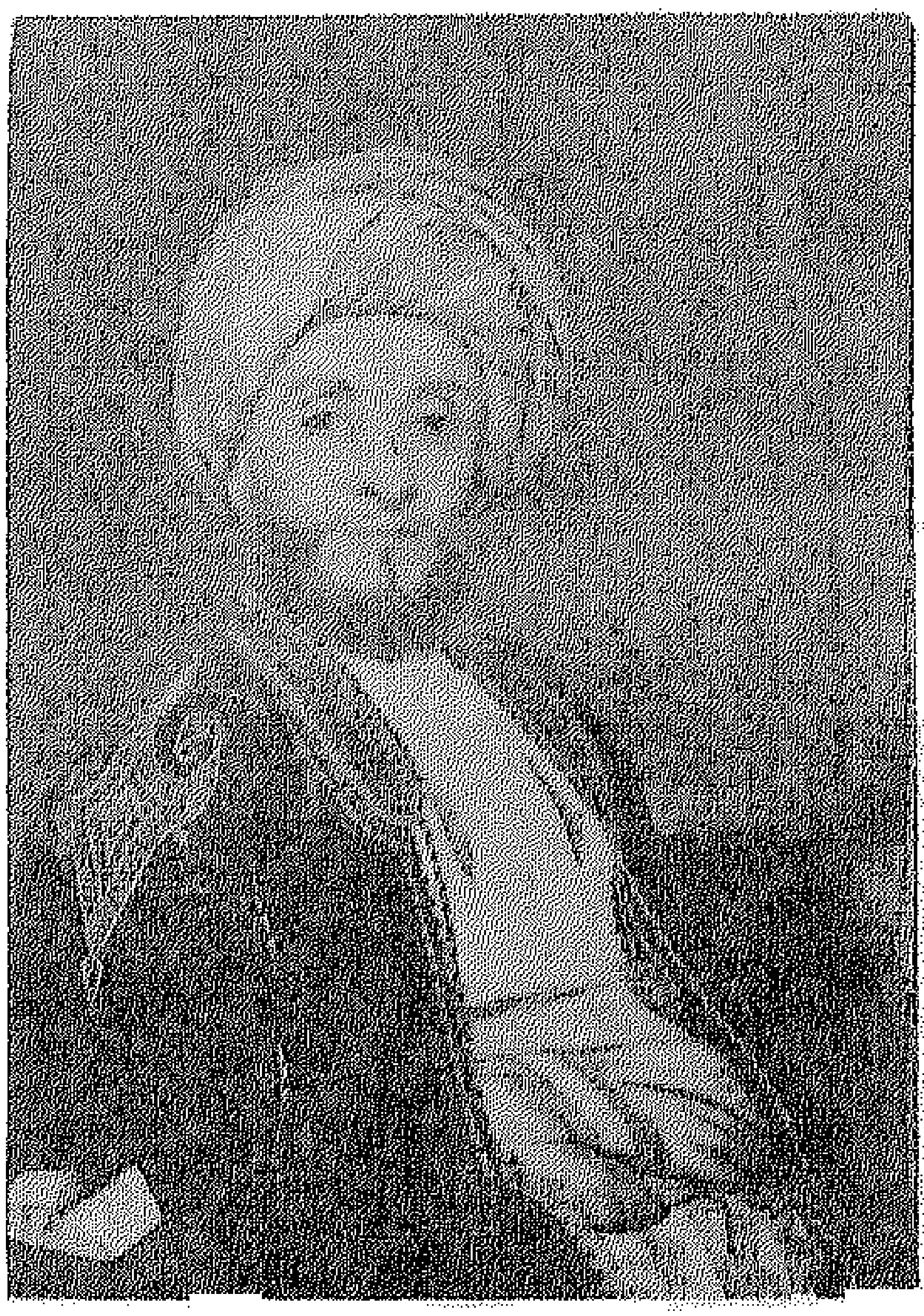

صورة مبعوث السلطان

مخطوط يمني يكشف:

كيف انتفض العرب
دفاعاً عن مصر؟

مصر هي مفتاح العالم

فجأة . . تعثر على جزء من التـاريخ فـلا تملك سوى أن تحتفي به، عندما تجد بين صفحاته اجابة عن العديد من القضايا التي تثور بين حين وآخر، وهذا الجزء من التاريخ يوجه لأولئك الذين انتعش لديهم الحس الاقليمي، والذين يتشدقون ليل نهار بحسابات الربح والخسارة وهم ـ في الواقع ـ لا يرون سوى ما تحت أقدامهم!

يتناول مخطوط قديم مرحلة تاريخية هامة عندما قدم أبناء الأمـة العربية كل ما يقدرون في لحظة الخطر حفاظـاً على القلب العـربي، دفاعاً عن مصر في مواجهة غزوة بونابرت ـ أو (الطامة الكبـرى) كما ذكـر المخطوط، فقـد قاد نـابليون عسكـره مع أحـلام امبراطـورية واسعة تبدأ بمصر وتمتد إلى الهند. . .

وكانت ـ وما زالت ـ مصر هدفاً لكل من داعبت أحلامه تحقيق (السيطرة العالمية)، من الاسكندر الأكبـر وحتى (السلام البـريطاني) الذي سعت لتحقيقه الامبـراطوريـة البريـطانية، وخـلال كل هـذه المـراحل كـان يعمل ذات القـانون والـذي يقول ان الاستيـلاء على المنطقة العربية يبدأ بالاستيلاء على مصر، وقـد أعلن ذلك نـابليون

في كلمات لا تنقصها الصراحة: «ان المجد الذي يصنع بالاستيلاء على الشرق لا بد له من الاستيلاء على مصر، فمصر هي مفتاح العالم. . .) ولم تفت هذه الكلمات اللورد كرومر وقدم به كتاب عن مصر بعد أن حفظها عن ظهر قلب. . !

* * *

وزائر اليمن لا يفوته أن يشعر بسطوة التاريخ، يراه في ازقتها وفي طراز عماراتها وداخل بيوتها، فما زالت المدن اليمنية مشاهد تاريخية حية، وما زالت حافلة بالمخطوطات، وقد كان اليمن وخاصة الشمال بعيداً أكثر من غيره عن تناول المستشرقين، وبقيت فيه أطنان من المخطوطات ما زالت تنتظر الجمع والتصنيف والتحقيق.

وهذه الصفحة من التاريخ قدمها الاستاذ المصري الدكتور مصطفى سالم الذي يعمل في مركز الدراسات اليمني، بعد أن عثر في جامع صنعاء الكبير على مخطوط لأحد مؤرخي اليمن وهو لطف الله جحاف، وعنوان المخطوط: «درر نحور العين في سيرة الإمام المنصور علي واعلامه الميامين» وعكف الدكتور سالم على تحقيقه وتقديمه. .

وكان هذا المخطوط، بمثابة اكتشاف جديد، فهو يتناول صدى الحملة الفرنسية في الجزيرة العربية، مع تركيز خاص على اليمن والحجاز حيث عاش وتنقل لطف الله جحاف ويتناول في روايته مبادرة أبناء الحجاز بتشكيل قوة مسلحة تقاتل إلى جوار شعب

مصر، وينقل صورة فياضة بالمشاعر، عندما دعا محمد الجيلاني إلى الجهاد وأخذ يخطب في الناس مستثيراً هممهم، وكيف تبرعت النسوة بحليهن بعد أن استمعن إلى كلماته الملتهبة، حتى تمكن من جمع قدر كبير من المال والمتطوعين، ثم يروي لطف الله جحاف كيف أخذ المجاهدون زوارق متهالكة قديمة عبرت بهم البحر الأحمر إلى القصير في صعيد مصر، وهناك دارت المعارك بينهم وبين الفرنسيين داعمين المقاومة المصرية، وتدحر هذه المقاومة أمام السلاح الفرنسي المتقدم ويقتل قائد الحملة، وتتفرق فلول قواته في العديد من القرى المصرية.

وقد عرفنا جميعاً قصة سليمان الحلبي الذي انتقم من الاحتلال بقتله كليبر خليفة نابليون، وكيف أظهر الحلبي شجاعة خارقة أثناء محاكمته وكيف تقبل الموت برضى المجاهد، ولكننا لم نعرف بالقدر ذاته الجيلاني قائد متطوعي الحجاز الذي قدم من الأراضي المغربية لكي يموت على أرض الكنانة.

وربما يقال أن شيخ المؤرخين عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤ ـ ١٨٢٥) قد ذكر الجيلاني في سفره العظيم (عجائب الآثار في التراجم والاخبار) فتجد بين صفحاته أخباراً متناثرة عن الجيلاني وفلول قواته التي وصل بعض أفرادها إلى القاهرة، ولكنك لن تجد قصة الجيلاني كاملة إلا عند لطف الله جحاف، ولعل ذلك يبين ثغرة في التاريخ العربي تحتاج إلى جهود المؤرخين، فإذا جمعت

أقوال المؤرخين العرب المتناثرة في العواصم العربية المختلفة حول الحملة الفرنسية لامكن سد هذه الثغرة.

إن القيام بذلك سيضع أمامنا حقائق وابعاداً جديدة. .

ويقربنا خطوة نحو وحدة التاريخ العربي، ويعالج قصور بعض فصول التاريخ لأن أغلب وقائعه المدونه تدور في العواصم العربية، ويندر ان تتناول ما يقع خارجها!

وأي قصة يمكن كتابتها لو جمعنا أثر الحملة الفرنسية في كافة أرجاء العالم العربي؟!

وأي قصة سنحصل عليها لو وضع ما كتبه الجبرتي مؤرخ القاهرة إلى جانب لطف الله جحاف المؤرخ الصنعاني، وكل منهم قدم سرداً تفصيلياً للوقائع التي شهدتها مدينته. . .

كان الجبرتي رغم أهمية مؤلفه وعمق نظرته، لا يعدو مؤرخاً قاهرياً لم يتمكن من متابعة أحداث الحملة في صعيد مصر إلا من خلال ما تناقله الرواة والوافدون، أو من خلال المنشورات التي كان الفرنسيون يعلقونها على أبواب الحارات، وهنا نجد لطف الله جحاف يكمل الصورة ويضيف إليها العديد من التفاصيل.

يضيف لطف الله جحاف إلى ما هو معروف عن الحملة الفرنسية، فيقدم ما هو متداول عن هذه الحملة في اليمن، وينقل كيف اهتزت الجزيرة العربية بانباء هذا الغزو نتيجة عمق الشعور

الديني وعمق الاحساس بالانتماء إلى أمة واحدة. .

وعكس المخطوط هذا الاهتمام بأخبار (ديار مصر طهرها الله من الدنس) وأخذ يبث بين كلماته روح الحماس والدعوة إلى الجهاد.

وكان لقرب جحاف من الحكام في صنعاء ما مكنه من متابعة الأخبار وأن ينقل تفاصيل الوقائع ما خفي منها وما ظهر، وأن يحصل على نصوص المراسلات المتبادلة بين إمام اليمن وباقي حكام العالم العربي والإسلامي حول فاجعة غزو بونا برت لمصر.

ومن ناحية أخرى يتنقل لطف الله جحاف بين اليمن والحجاز عقب انتهاء الحملة، ويجمع تفاصيل أحداث الحملة من مكة والمدينة، ودون هذه التفاصيل كما سمعها موزعة على الأيام كما درج عليه مؤرخو ذلك الزمان بعد أن حقق بعضها وقدم لنا كل ما وقعت عليه يداه.

هذا رغم أن المؤرخ اليمني قد كرس مخطوطه لتاريخ اليمن في عهد الإمام المنصور علي بن المهدي العباسي «١٧٧٥ - ١٨٠٩» وكان الاطار العام لتفكيره تغلب عليه الصبغة الدينية السائدة في عصره.

ولقد كانت الأوضاع في الجزيرة العربية خلال الحملة الفرنسية على النحو التالي:

اليمن يحكمها الإمام المنصور، والحجاز يحكمها الشريف غالب بن مساعد، وقد تأثر كلا الرجلين بأحداث الحملة وتحالف الإمام المنصور مع الشريف غالب في مواجهة الغزو الأوروبي عندما أتى المنصور رسول بريطانيا للتفاوض فيما يتعلق بمصالحها في اليمن وفي جنوب البحر الأحمر.

أما شريف مكة غالب بن مساعد (توفي ١٢٣١هـ - ١٨١٦م) فقد كانت أوضاعه تختلف عن أوضاع إمام اليمن، فقد كان تابعاً للدولة العثمانية، وعرف عنه حينذاك فقره المادي وضعفه السياسي والعسكري، لذلك عاش الحجاز أغلب فترات تاريخه في العصور الوسطى أوضاعاً سياسية خاصة، فقد تداول حكمه جماعة الاشراف وكان هؤلاء يربطون أنفسهم بالدولة الأقوى في العالم الإسلامي وخاصة بالقاهرة حتى يوفروا لأنفسهم الحماية والعون. لذلك نجد (الشريف غالب) حريصاً على تنفيذ مخططات الدولة العثمانية ويقوم بدور الوساطة بينها وبين الحكام العرب والمسلمين كما فعل مع إمام اليمن.

وفي نفس الوقت كان يلمس مدى ضعف الدولة العثمانية، ومدى عجزها عن حماية ولاياتها، ويخشى أن تمتد يد بونابرت إلى بلاده، لذلك سارع بالكتابة إليه ومداهنته حتى يأمن جانبه!..

أخبار الحملة

وقبل استعراض ما جاء على لسان جحاف، يجدر بنا أن نتوقف

ـ ولو قليلاً ـ عند أحداث الحملة الفرنسية، التي وقعت على مصر ما بين ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ م. ووصلت اصداؤها إلى كل مكان، وكانت علامة هامة في تاريخ مصر والشرق العربي، والتي كانت احدى مراحل التاريخ النادرة، القصيرة والمكثفة.

فقد كانت أولى الصدمات العسكرية والحضارية التي وفدت من أوروبا بعد الثورة الفرنسية، وبعد أن سبق وصدت مصر، الصليبيين، وكانت فرنسا على رأس الحروب الصليبية، وهي التي سبق ووجهت هذه الحرب ضد مصر، وحاولت غزوها مرتين فاشلتين، وعادت في عهد لويس الرابع والخامس عشر والسادس عشر، ومنذ خضوع الشرق للدولة العثمانية...

وهده الحملة لدى الدكتور لويس عوض هي التي أدت (إلى تصدع حضارة العصور الوسطى وتشققت اطرها المتحجرة تشقق البيضة لتخرج من قشرتها سرنقة العنقاء الجديدة...) وعند البعض الآخر: هي بداية أزمة ثقافية حادة ما زلنا نعاني من ويلاتها حتى الآن. فقد ارتبطت لدى بعض المثقفين عملية التحديث بالعزو الاستعماري وبناء الامبراطوريات، مما أضاف مصاعب جمة إلى عمليات التحديث، ومنذ أن ارتبطت صدمة العصرية بالغزو الاستعماري.

ولا بأس من العودة للجبرتي نسترجع كلماته التي كتبها في سنة وصول الحملة ١٢١٣هـ ـ ١٧٩٨م، وتظهر في كلماته عمق بصيرته

وحيرته بين ما جاء به الفرنسيون من علوم وفنون وبين كونهم غزاة استباحوا وطنه! يقول عن سنة وصول الحملة إلى مصر: (أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن، واختلاف الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب، وما كان ربك مهلك القرى وأهلها مصلحون..).

بهذه الكلمات بدأ سرد أحداث الحملة..

أما بونابرت فيقول في مذكراته التي كتبها في ١٦ أغسطس ١٧٩٧ عن دوافع حملته: (ان المواقع التي نحتلها على شواطىء البحر الأبيض المتوسط، تجعل لنا السيادة على هذا البحر، وإذا كانت انجلترا تنازعنا طريق رأس الرجاء الصالح فلنتجاوز عنه، ولنحتل مصر فسيكون لنا فيها الطريق الموصل إلى الهند..).

ومن يقلب في صفحات الحملة يتوقف عند خدعة كثيراً ما تتكرر، وهي التزلف لمعتقدات الأهالي، ويدهشك أن نابليون يبدأ حديثه إلى المصريين باسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك، ويشيد بالإسلام وتستمر هذه النغمة في كل بياناته، ولأول مرة يأتي فاتح أجنبي يحدث المصريين عن عراقة تاريخهم وعن عظمة بلادهم وعن سماحة دينهم..

بل وأخذ يحضر بنفسه الاحتفالات الدينية مثل المولد النبوي

ويصبر على حفلات الذكر الطويلة حتى نهايتها، كما أعلن أنه جاء لتخليص المصريين من ظلم المماليك، وأنه حصل على موافقة السلطان العثماني، وأنه رسول الثورة الفرنسية الداعية إلى الحرية والاخاء والمساواة، وأنه ما جاء إلا لتحريرهم. . . !

ولكن محاولات التودد هذه، لم تنفعه كثيراً مع الأهالي، فسلوك رجال الحملة لا يتمشى مع العادات والتقاليد المرعية، وكانت هذه احدى المرات القليلة التي تقف فيها العادات وانماط حياة الأهالي، وتساعد على التمييز بين القول والفعل، ونشبت ثورة القاهرة الأولى والثانية والتي بدأت من ساحات الأزهر الشريف بعد وصول الحملة بوقت قصير.

وانتشرت الدعوة إلى الجهاد في أنحاء مختلفة من الوطن العربي. .

وقد راسل بونابرت بعض الحكام العرب ومنهم إمام مسقط وكل من حاكم درنة وطرابلس محاولاً كسبهم إلى صفه، وذهبت محاولاته أدراج الرياح، وقاوم أهل الشام الحملة التي قادها بونابرت في عام ١٧٩٩م .

هذه هي وقائع الحملة التي تناولها لطف الله جحاف. .

وكان أهم ما نقله الدكتور سالم عن كتاب جحاف هو مجموعة الخطابات المتبادلة بين بعض الحكام العرب والمسلمين بشأن الحملة

الفرنسية والحاجة إلى الدفاع عن البلاد، فلقد أثاروا روح الأخوة الإسلامية ودعوا إلى مواجهة «الفرنسيس» في الوقت الذي أطلق فيه السلطان العثماني نداء الجهاد. .

ونجد أخبار الحملة متناثرة مع غيرها من الأحداث، يقول: «ذكرت عدة حوادث من التهايم والجبال والحجاز والحرمين والعراقين ومصر والشام والروم والسند والهند والغرب بعد الفحص والتفتيش».

ويضيف: «هذا مختصر لطيف، ومؤلف نحيف، لم يسألني أحد أن أضعه، ولا هول على فرد من الناس أن أجمعه، واتبعت فيه ما يستحق الاثبات من سطور. . ».

وأورد لطف الله جحاف خطابات السلطنة العثمانية إلى كل من شريف مكة وإمام اليمن»، تطالبهما بضرورة التعاون مع قوات روسيا وانجلترا لأنهما حليفتان للسلطان»! .

وكانت هذه مؤشرات الدخول الاستعماري من خلال ضعف الدولة العثمانية، وبدأ الخطأ الفادح إلا وهو مقاومة طرف استعماري عن طريق التحالف أو الاستسلام لطرف آخر. . !

وبقي أن نثبت صفحات من مخطوط جحاف وما تضمنه من رد الفعل في الحجاز واليمن،

«ودخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف «١٧٩٨م»وفيها قام

في البلدة الحرام بوظيفة الدعاء إلى إقامة شعار سنام الإسلام، محمد المغربي الجيلاني الهاشمي لما وردت الاعلام بما صنعه الكفرة اللئام، من الهجوم على ساحات مصر، وتصدر بالحرم الشريف، فألتف عليه خلائق، واستمعوا ارشاده إلى أنهج الطرائق، وفعل دعاءه بالقلوب ما فعل، وتسامع الناس بأخباره فوردوا إليه، وبذلوا نفوسهم وأموالهم بين يديه، وكانت النساء تأتي فتسمع ما يمليه من أحداث الحض على الجهاد، فيلقين إلى الحلقة فتخاتهن (خاتم في اليد أو خلخال في القدم) وعقودهم وملبوسهن، ويقلن ذلك الذي علينا، فاجتمعت عنده أموال واسعة، ووردت إليه المتطوعة من البلاد الشاسعة فسار بهم لمناجزة اعداء الله الفرنسيس.

كان السيد محمد الجيلاني قد دعا العباد بالحرمين إلى فريضة الجهاد، فممن أعانه بالحرمين محمد باصلاح الحضرمي، فإنه تصدق في سبيل الله بخمسمائة بندق صغار مغربية ومائتي حربة من حراب الشام، ومائتي سيف وأربعمائة كيس من حبوب الرز وألفي نعل ينتعلها فقراء المحاهدين، ومنهم الشيخ عبد الرحمن العسيري الذي قدم مهمات جهز بها ثلاث سواع (سفن صغيرة) لهم ميرة، ومنهم الشيخ أحمد فاس جهز دواوين في سبيل الله، ومنهم الشريف غالب بن مساعد، جهز خمس سواع في سبيل الله، ومن أهل ينبع محمد أبو العسل جهز داواً من داواته وثلاث سواع أخرى من أهل ينبع، فسير السيد محمد الجيلاني جماعة متطوعة من جدة وتلك الداوات فكانوا نحواً من أربعة آلاف مقاتل، ثم سار نحو المدينة

المنورة فمر بأهل رابغ والحليص (واديان بين مكة والمدينة) فدعاهم فأجابوا وبذلوا أموالاً واسعة. وسار إلى بدر فنالوه وخرج منهم جماعة متطوعة وكان له وكلاء يجمعون الأموال معه، ثم نزل بالصفرا. (ناحية في المدينة) فدرس بها ودعا إلى الجهاد فجاؤه بأموال واسعة، وسار إلى المدينة فتسلم من أهلها أموالاً وخرج منهم ثلاثمائة متطوعة، فنزل الجميع إلى ينبع، وجاء الخبر بأن المتطوعة من ديار مكة قد مرت مراكبهم، فحمد الله، وسار بمن معه وكان السابقون من مكة قد خرجوا من ريف مصر وعليهم السيد حسن الجيلاني ابن أخت السيد محمد والسيد طاهر أخو السيد محمد، فنزلوا بقنا؛ فقيل لهم أن الفرنسيس بمدينة سمنود قريباً منكم فخرجوا نحو الفرنسيس فاقتتلوا فكانت الدائرة ذلك اليوم على المسلمين ففروا إلى قنا، فحوصروا بها فخرجوا منها إلى الريف، وسار بعضهم إلى اللقيطة وورد على المسلمين خبر نزول الجيلاني من البحر، فالتقاه جماعة منهم فطلبهم وسار بهم حتى حاذى مدينة أبنود».

ويستمر جحاف ويسرد أنباء المعارك التي دارت في صعيد مصر، والتي لم يكن للمجاهدين معرفة بفنونها الحديثة ولا عتادها العسكري. ويصل إلى نهاية الفصل التاريخي بقوله: «انفصم عقد نظام المتطوعة وذهب الناس ارسالاً لا أمير لهم، منهم الذاهب إلى مصر والذاهب إلى الشام، والعائد إلى الحرمين. . ».

أما المصادر الفرنسية فقد صورت العديد من المعارك التي وقعت مع قوات الجيلاني في الصعيد. .

وفي خطاب كتبه ديزيه إلى بونابرت يشرح موقفه قائلاً: «معارك متصلة مع الفلاحين والمتطوعين المكيين. . وكأننا على حافة العالم، ، اننا نفتقر إلى كل شيء، ونوع الحرب التي نخوضها عسيرة. . »

تسجل يوميات الحملة الفرنسية ما وقع يوم الثالث من ابريل، عندما كان يقود «الشريف حسن» نحو ألفين من المكيين، ولحق ببعض قطع الأسطول الفرنسي في البحر الأحمر، فراحوا يطلقون نيران بنادقهم على سفنه، وكانت السفينة «ايطاليا» تحمل نحو مائتي بحاراً ومعه ثلاثمائة من الجرحى، وفرق موسيقية، فردت على النيران بمدفعية مدمرة، ولم يخف القصف المكيين، وهجموا في صنادل صغيرة، وبدأو يصعدون إلى ظهر السفينة، وعندما أدرك قبطانها «مورانـدي» أن المقاومة لا تجدي، أمر باخلاء السفينة واحراقها وقتل المكيون مورانـدي واقتادوا الأحياء من الفرنسيين إلى البر.

كما سجلت الحملة أحد المعارك الهامة عندما تحصن عدد من المكيين في احد بيوت قوص وكتب القائد الفرنسي بليار إلى ديزيه وصفاً يقول فيه. . «أصدرت الأمر باقتحام البيت وأفلحنا في شق طريقنا إلى الباحة واشعال النار في البناء، ونزل المكيون عدواً وهم

عراة، يمسك كل منهم سيفاً بيد والبندقية بالأخرى، ويطلقون النار على جنودنا ويقفزون إلى اللهب محاولين اطفاء النار بأقدامهم. . »

وكان الاستيلاء على القصير ضرورة لمنع تدفق تيار المتطوعين من الجزيرة العربية.

ولا يفوتني هنا أن أذكر أن أهم دروس الحملة الفرنسية أن الأمن المصري يمتد إلى كل من السودان وفلسطين، فقد أدرك نابليون أنه لا يمكن أن يقر له قرار في مصر. إذا لم يخضع كليهما، فأرسل ديزيه بجيشه إلى السودان مطارداً مراد بك، وقاد بونابرت قواته في حملة على فلسطين مطارداً إبراهيم بك، هادفاً تأمين الوجود الفرنسي في مصر.

ولا يقلل من أهمية مخطوط لطف الله جحاف تفسيره الساذج للاحداث، فالأهمية ليست فيما يقدمه من تقديرات بل ما يسرده من أحداث، ومن تصورات أهل زمانه فالحملة الفرنسية عنده قد قامت بسبب خلاف أحد التجار الفرنسيين مع حاكم مصر حينذاك الذي «أطلقه في قيد الذل مهاناً، فراح عنها ووصل إلى سلطان دياره بونابرته»، وبعد رفض السلطان السماح للفرنسيين، بالخروج إلى الاسكندرية ليعبروا منها إلى بحر السويس لحاجات لهم بالهند، فأبى ذلك ولم يسعفهم إلى ما هنالك. . ».

وما كشف عنه هذا المخطوط من وقائع تاريخية، يرجع الفضل فيه للدكتور مصطفى سالم الذي أحب اليمن وعكف على تاريخها، واخضع كل ما جاء في المخطوط لمعايير البحث العلمي . .

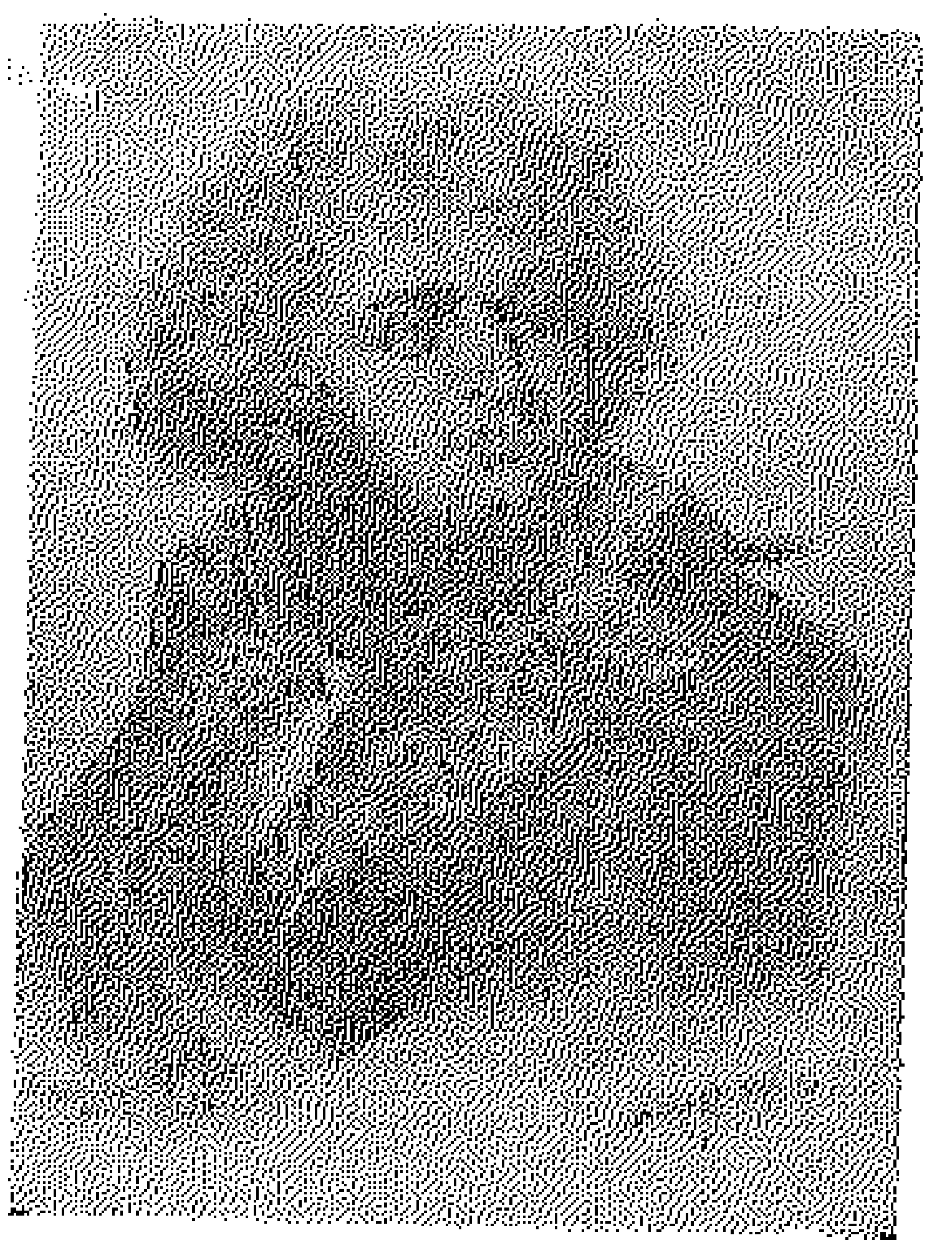

الجنرال كليبر

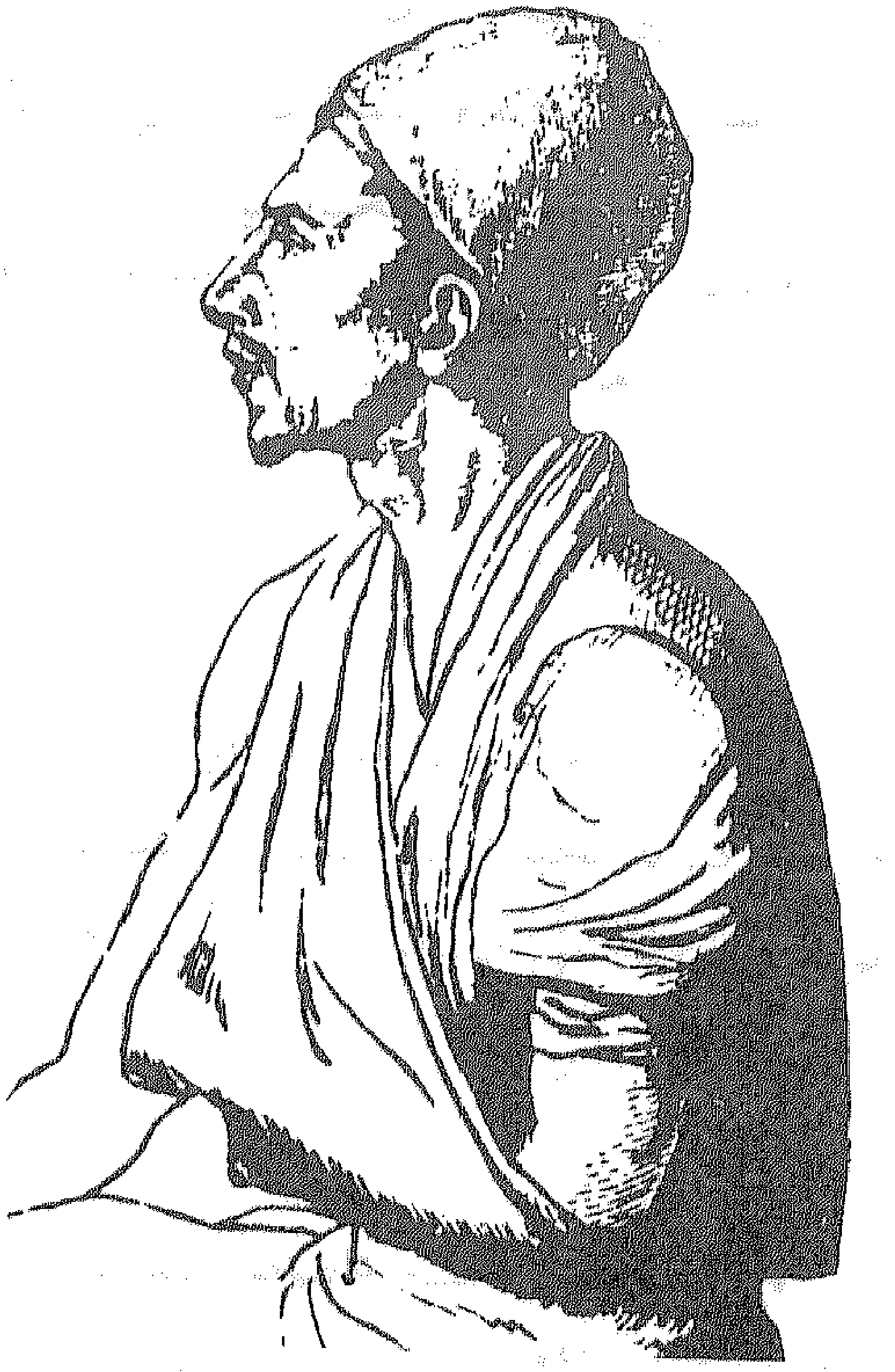

سليمان الحلبي

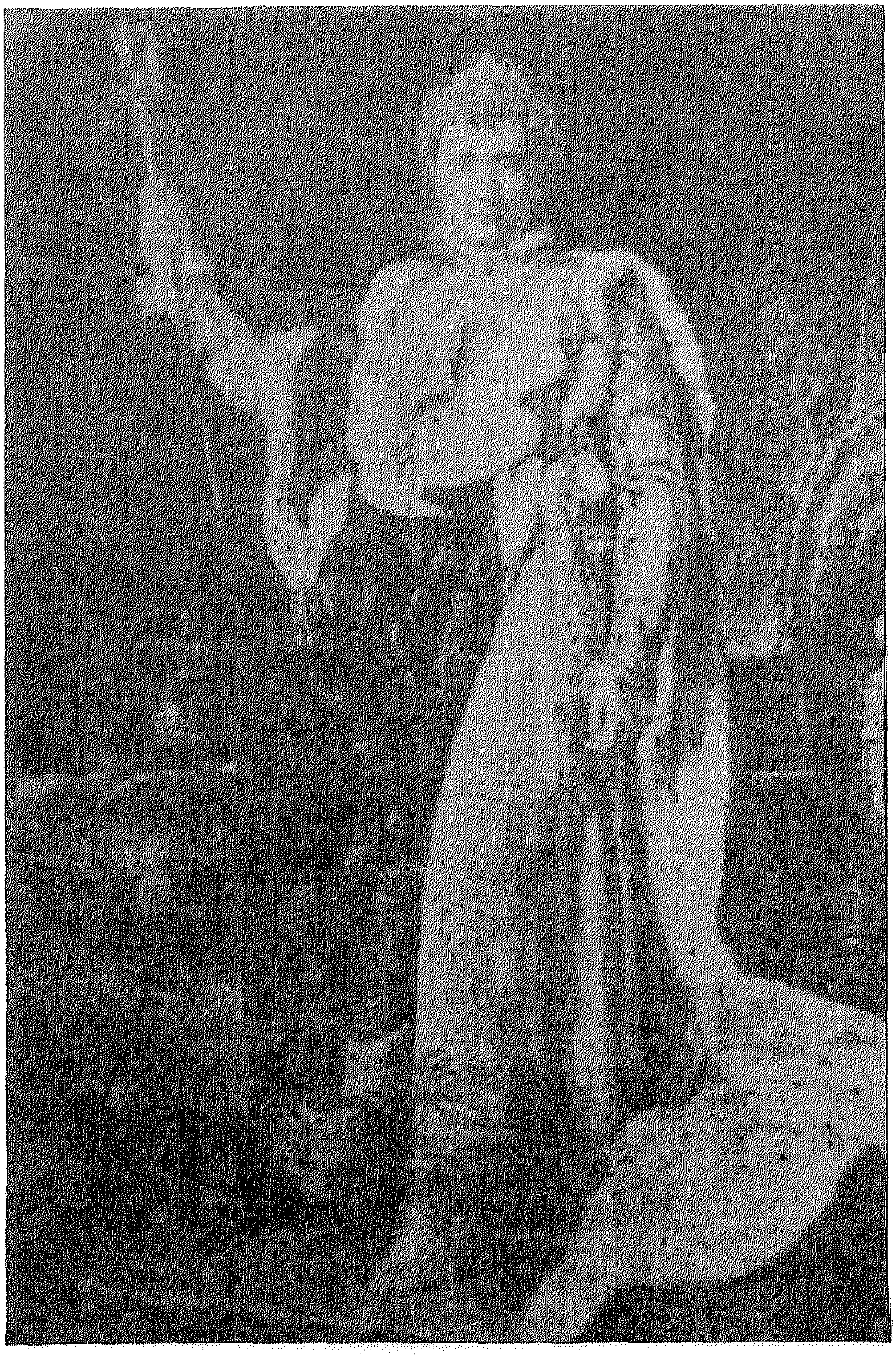

ناپلیون بوناپرت

دمشق . . من مقعد حلاق

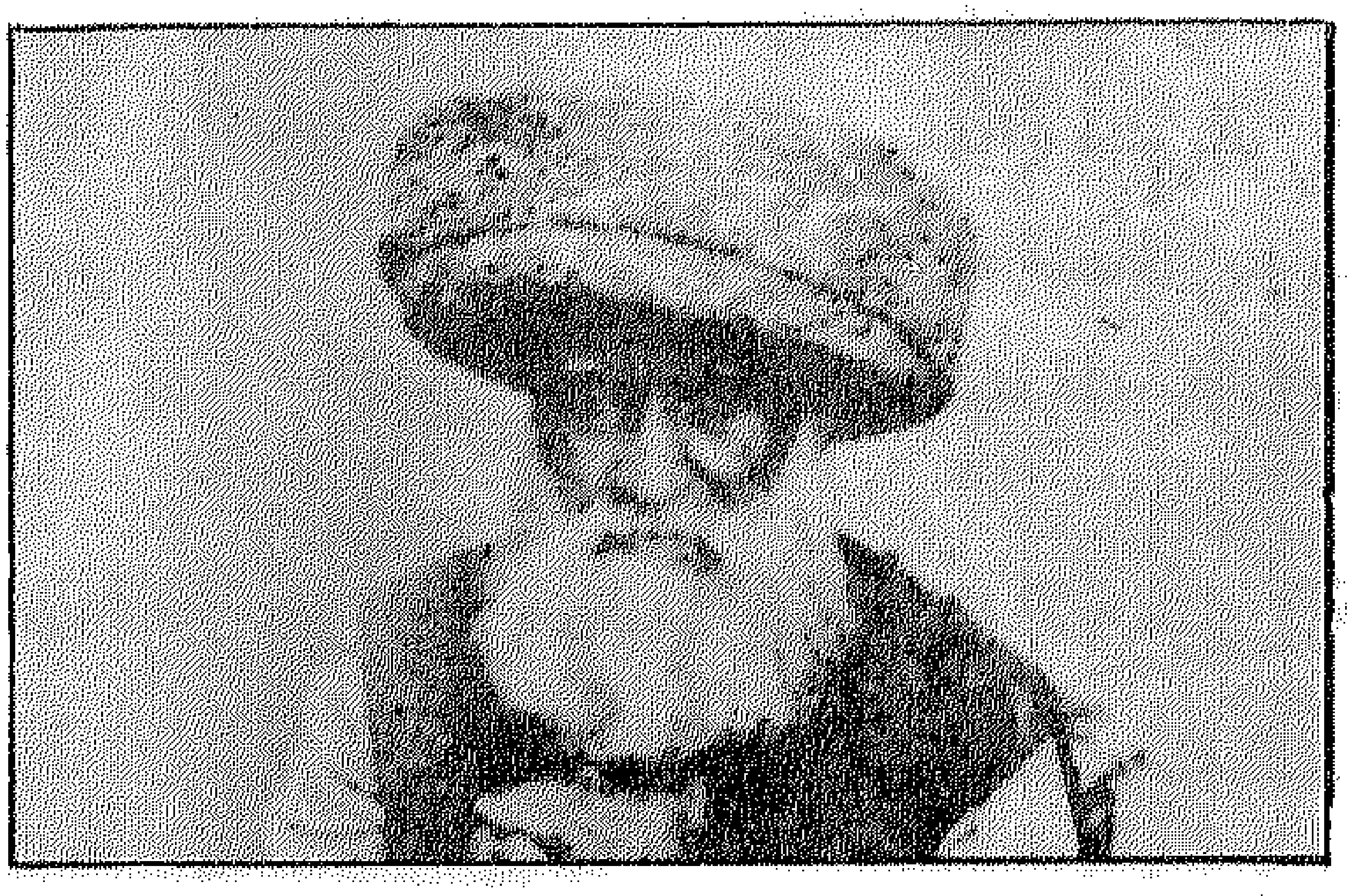

حكاية دمشق، قصة مثيرة، حصاد رحلة إلى الشام، وحصاد رحلة في التاريخ قام بها حلاق مجهول اهتم يوماً بتسجيل كل ما يحدث حوله، من سير الباشوات إلى سير الاغوات، وراح مخطوطه أدراج الرياح حتى التقطه شيخ من دكان عطار، فأصبح كتاباً ومرجعاً لتاريخ دمشق ما أشبهه بكتاب الجبرتي عن مصر. .

أيضاً هذه الحكاية تأتي حصيلة عمل آخر قام به متحف هارفارد، عندما حصل على مجموعة من الصور واللوحات عن دمشق، وبقيت في صندوق مغلق، حتى عثر عليها صدفة، فكانت ثروة تحكي بالريشة والعدسة الفترة العثمانية من تاريخ دمشق. .

فهذه هي القصة من كتاب الحلاق المؤرخ، ومن صور المتحف.

وخلال الرحلة نتساءل: ماذا بقي من دمشق القديمة. ؟

الصدفة وحدها هي التي كشفت مخطوط كتاب البديري الحلاق، والصدفة أيضاً هي التي أظهرت ما يزيد عن ٢٨ ألف صورة للشام، أما كيف قادت الصدفة إلى كتاب البديري الحلاق، فلذلك قصة.

أراد أحد الشيوخ «ان يشتري بعض العطارة فوضع له العطار

ما باع في ورقة مكتوبة ولما عاد الشيخ إلى بيته فتح الورقة وقرأ ما فيها، وأدرك أنها جزء من مخطوط تاريخي، فعاد إلى العطار واستطاع أن يحصل على بقية الأوراق. . ».

أما الصور فقد عرفت أول مرة عندما وصلت بعثة امريكية إلى دمشق في محاولة تحقيق ثروة من الصور التي تم العثور عليها، وقد تبين أن بعض هذه الصور قد تم شراؤه من تاجر بريطاني، ثم أودعت منذ عام ١٨٨٩ في مخزن متحف هارفارد وبقيت في الصناديق بعد أن نسي كل شيء عنها، وفي عام ١٩٧٠ وقع انفجار في سقف الطابق العلوي لمبنى المتحف خلال مظاهرات الطلبة احتجاجاً على حرب فيتنام، وعندما ظهرت الصناديق التي لا يعرف أحد محتوياتها، وقام أمين المتحف بفتح هذه الصناديق المجهولة، أذهله قيمة ما عثر عليه، فهذه الصور تنقل تفاصيل البيئة الشامية، ويمكن من خلالها الكشف عن عمارة دمشق، وحياتها الاجتماعية في فترة هامة من التاريخ، واعتبرت هذه الصور من أكبر وأقدم ما عثر عليه.

وجاءت البعثات إلى دمشق تسعى لمقارنة الصور بما شهدته دمشق من تغيير، كما تسعى إلى تحديد الأماكن والأشخاص التي تظهر في صور هارفارد.

التاريخ من مقعد حلاق

والخطوط والصور يتناولان حياة دمشق خلال الفترة العثمانية،

ويكمل كل منهما الآخر، صحيح أن بينهما فترة زمنية ولكنهما استمرار لذات المرحلة التاريخية أما كتاب «حوادث دمشق اليومية» فهو ليس للبديري وحده فالبديري قد جمع مادته من أفواه الناس الذين يترددون على محله، وكتبها وصنفها بأسلوبه ثم جاء الدكتور عزت عبد الكريم فقدمه وحققه..

يتناول سجل البديري الحلاق فترة من الحكم العثماني للشام والذي امتد أربعة قرون، ومادة هذه الفترة التاريخية نادرة، أو لعلها موجودة فيما تزخر به الوثائق التركية التي ما زالت مجهولة لنا بالاضافة إلى ما كتبه بعض الرحالة الأجانب مثل فولتي في رحلته إلى كل من مصر والشام بين سنتي ١٧٨٣، ١٧٨٥م. ولم يكن قصد البديري الحلاق تدوين تاريخ بلده، ولكنه كان يسجل الأحداث التي ينفعل بها خوفاً من النسيان، أو لعل حرفة الأدب قد أدركته فجعلته يسعى إلى التعبير عن مشاعره فيما يجري من حوله والتنفيس عن عواطفه، وخلال سجله اليومي كتب رأيه في الناس والأحداث التي شهدها، فجاءت يومياته صورة فريدة نادرة وصادقة لقطاع من حياة أهل الشام في أواسط القرن الثامن عشر ولمدة وصلت إلى واحد وعشرين عاماً بين سنتي «١١٥٤، ١١٥٧هـ» «١٧٤١ - ١٧٦٢م».

ولا يفوت قارىء اليوميات أن يلاحظ ذلك التشابه الذي يصل إلى حد التطابق بين صور الحياة في دمشق كما يقدمها الحلاق،

وصور الحياة في القاهرة كما يقدمها الجبرتي وليس هذا غريباً فقد كانت دمشق والقاهرة وبغداد أجزاء من الدولة العثمانية واسعة الأرجاء. .

ولا يفوته أن يلاحظ أيضاً مدى المظالم والمآسي التي تعرض لها أهل الشام في هذه الفترة ولعل أحد الصور التي كتبها تقدم نموذجاً لدراما التاريخ. . وما تعرض له أهل الشام من عسف وقسوة. . ويحكي أنه «في نهار الأحد بعد العصر خامس عشر جمادي الثانية من هذه السنة ضربت مدافع، فسألت الناس عن الخبر، فقيل أن سعد الدين باشا العظم شقيق أسعد باشا جاءته رتبة وزارة، وجاء «طوفي» خصلة الحصان التي ترفع للتكريم، فهرعت أكابر الشام لأجل تهنئة أسعد باشا، وكان أسبقهم إلى الباشا فتحي أفندي دفتر دار الشام فلما رآه الباشا قام ودخل لدهاليز الخزنة فتبعه فأخرج أسعد باشا صورة أمر أطلعه عليه فأخذه فتحي أفندي وقرأه وإذا به يتضمن الأمر بقتله، وقال له الباشا: ما تقول في هذا. . ؟ فقال: سمعاً وطاعة، لكن أنا في جيرتك فخذ من المال ما أردت واطلقني. فقال له الباشا: ويلك يا خائن. أنا لم أنس ما فعلت في نساء عمي ثم أمر برفع رتبه وقطع رأسه. ووضع في رقبته حبلاً وسحب إلى خارج السرايا وقطع رأسه وطيف بجثته في شوارع الشام ثلاثة أيام، وأمر الباشا بالاحاطة بداره وماله والقبض على أعوانه، وقتل بعض خدمه، ثم ضبط الوزير تركته وأموال اتباعه جميعاً.

وقبل المضي في تقديم الصور المختلفة من يوميات مؤرخنا نتوقف عند تلك الشخصيات الفذة التي كانت من عامة الناس، مجرد حلاق بسيط عزف بقلمه أنين وشكايات أهل الشام بكل تفاصيلها، وقدم صورة حية لأهل ومشاكل زمانه . .

والحلاق كان اسمه وحرفته التي اشتغل بها، وذكر في عدة مواضع من يومياته اعتزازه بهذه المهنة. يوم كانت الحرف لها احترامها وتقديرها وكان لطائفة الحلاقين مكانها الظاهر في المجتمع الدمشقي، وكان يوكل إليهم مهنة التطبيب وختان الأطفال، ورغم هذا فقد مضى صاحب الكتاب مغموراً لم يحفل به أحد، ولم يدون سيرته مؤلف.

وأكسبته مهنته ميزة الاختلاط بمختلف الطوائف والفئات. مما مكنه من معرفة الأخبار في زمن لم تعرف فيه الصحافة والاذاعة! ولا يفوتنا أن نذكر أن المؤلف اقتصر على تدوين ما يجري في دمشق وحدها دون سائر بلاد الشام وحكى تولية الباشوات وكبار أصحاب المناصب وعزلهم ومصادرة أموالهم مثل المحتسب والدفتردار والقاضي والمفتي وأغوات العسكر، ونقل أنباء الحج وما كان يواجه قافلته في الطريق، وأطنب في فتن الأخبار، وارتفاع الأسعار واضطراب الأمن، وفساد الأخلاق وانتشار الأمراض وغزو الجراد، وتوقف عند عالم أو متصوف أو نقيب حرفة، وتابع ظواهر الطبيعة

من ريح عاصف وكسوف وخسوف وزلازل.

وقليلاً ما ذكر ما يتناقله الناس عن فتنة في بغداد أو حرب بين الدولة العثمانية وفارس أو بين أشراف الحجاز. .

والمؤرخ ينقل إلينا أحداث دمشق كوحدة سياسية وادارية واقتصادية قائمة بذاتها زاخرة بالحركة والنشاط. لها أدوات الحكم الخاصة بها ولها قلعتها وسورها وأجنادها وعلماؤها ومتصوفوها وجوامعها وأحياؤها وحاراتها، وطوائف حرفها، يمكن لها أن تكفي ذاتها بمواردها الخاصة. .

هذا بعد أن رسمت الدولة العثمانية الحدود وتركت حرية تنظيم الناس في طوائف يمارسون في ظلها قدراً من الحرية، والذي عليهم عبء، اعاشة الحكام والخضوع لهم.

أما العلماء ورجال الدين، فيجد عندهم الشعب ملاذه. ويجبرهم أحياناً على تصدر الحركات الشعبية ضد مظالم الحكم، فإذا لم يستجيبوا صب عليهم غضبه.

ومما يلفت النظر أن أكثر باشوات الشام الذين اختارتهم الدولة العثمانية حكاماً خلال الاحدى وعشرين سنة التي سجل البديري أحداثها، أما لقي مصرعه أو انتهى حكمه بالنفي والمصادرة، ويحكي البديري ما قاله باشا صيدا لاسعد باشا العظيم، عندما رآه يشن حرباً ضد الدروز، ناصحاً له بالكف قائلاً: هذا أمر يعود

علينا وعليك بالتلف، ولا ترضى الدولة به فرجال الدولة العثمانية يريدون العمار للبلاد ويكرهون الجور، والفساد قادرون على إرسال عشرة وزراء في يوم واحد ولكنهم لا يقدرون أن يعمروا في عشر سنين قرية إذا خربت، وعندما عاد أسعد باشا واستمر في الحرب. وانتصر وجمع ثروة طائلة وبنى العمائر الشاهقة واستكثر من أسباب القوة، وحج بالناس أربع عشرة حجة في أمن وسلام. لم يشفع له هذا كله، وإذا بالنجم يهوي. وينقل الباشا من دمشق فجأة ثم يقتل وتصادر أمواله وأملاكه، بعد أن خنق في الحمام بأمر مشابه لذلك الأمر الذي نفذه في فتحي أفندي..!!

ويروي البديري عن سليمان باشا أنه كان حاكماً قوياً عادلاً صاحب خيرات، ورغم ذلك ما أن تأخر وصول فرمان التقرير له بالولاية حتى «لغطت الارازل والاسافل بالقول والفعل وأظهروا بدعا كثيرة من محض الحرام، ولا زالوا على تلك الأحوال حتى جاء الفرمان.. وعندما خلفه ابن أخيه أسعد باشا العظيم بدأ حكمه هادئاً خانعاً حتى صفيت الدولة أموال عمه وأهانت حريمه وأهله والباشا لا يحرك ساكناً حتى احتقره العسكر وراحوا يطلقون عليه ألفاظ السخرية، ويسمونه «سعدية خاتم» حتى وجد الباشا الفرصة الملائمة فأمعن فيهم فتكاً وتشريداً فهابه الجميع..!

وهذا قاض عادل عرف عنه الاستقامة والقناعة ولكن لما كان لا يأكل الرشوة ولا يميل في دعوى فقد مال عليه أهل الشام..

وسعوا حتى عزلوه كما هي عادتهم قديماً. . !!

وهو بذلك يصور مدى ما وصلت إليه أزمة الحكم وانعكست على المجتمع في كل ولايات الدولة العثمانية والذي قدمها بعد أن عاش وسط دوامة أحداثها اليومية، وأخذ يراقبها من موقعه في «صالون الحلاقة» ومن خلال الأحاديث التي ينقلها إليه رواد محله، يسجل ما يرى وما يسمع.

وينقل هنا صوراً غنية بالدلالة ففي هذه الفترة التي يتحدث عنها والتي كانت دمشق تعاني من ظلم حكامها وعسفهم، بدأت الخطوة الأولى لعصر النهضة في أوروبا، وخلال هذه الفترة كانت الدولة العثمانية تسعى بكل ما أوتيت من قوة، وبالنظم التي وضعتها على الحفاظ على الأمر الواقع في هذه الولايات. . واجهاض وملاحقة أي محاولة للتغيير أو التقدم.

شدة الغلاء.

وتتلاحق خلال يومياته الصور الاجتماعية المختلفة، وكأي مواطن بسيط يئن ويشكو من شدة الغلاء وارتفاع أسعار المواد الغذائية من خبز وكعك ولحم وسمن وجبن ومواد الوقود من فحم وحطب فأخذ يسجل أسعارها مرة أو أكثر كل عام، وكان يدرك أن ارتفاع الأسعار وانخفاضها هو المقياس لعدالة الحكم أو فساده، وذلك عندما يرجع الغلاء إلى جشع الحكام وتكالبهم على تخزين المؤن واهمال المحتسب التفتيش على الأسواق، كما سجل المظاهرات

التي كـان يقوم بهـا العـامـة للشكـوى من الغـلاء حتى انهم كـانـوا يـواجهون البـاشا ويغلظون لـه القول، ويقصـدون الأعيان والعلماء بالسب والاهانة ويتهمونهم بـأنهم يساعـدون الحكام ضـد الشعب، ويحكي كيف هجمـوا على القـاضي وضربـوا رجالـه واضـطروه إلى الهرب فوق أسطح المنازل. . !

ويلاحظ بين سطور كتاب البديري التـداخل في ذلـك الزمـان بـين العلم والتصوف فـالصلة قـويـة بـين أهـل العلم والمتصـوفـة، وأغلب علماء ذلـك العصر لكل منهم حـرفة يحترفها من صنـاعة أو تجارة.

قصة سلمون. . !

وزخرت يومياته بنقد المجتمع الدمشقي لما شـاع فيه من فسـاد بمختلف طوائف العسكر وانفلات النظام، ممـا أشاع في دمشق جـواً من الفسـاد فكثرت «بنـات الهوى» وتبـرجن وجاهـرن بالمعصيـة في الشوارع ومعهم الدالاتيه «العسكر» والفسـاق ولا أحد يتكلم بقيـل وقال، ولا أمر بمعروف ولا نهي عن المنكر والصالح في هم وكرب، والفـاجر الـطالح يتقلب في لـذيذ النعم، «ثم يـدعو الله بـالفـرج، ويحكي قصة تنقل صورة اجتماعيـة معبرة حـول المفاهيم السـائدة، قصـة فتـاة منهن اسمهـا سلمـون. . » افتن بهـا اغلب النسـاء حتى صاروا ينسبون إليها كل شيء جميـل فيقولـون هذا المتـاع سلموني، وهـذا الثوب سلمـوني. . وهكـذا. . فـأصـدر المفتي فتـوى بقتلهـا

فقتلت، وأصدر الباشا أمراً بأن كل من وجد بنتاً من بنات الخطأ فيقتلها ودمها مهدور. . !

هذا بعد أن تجرأن وكسبن نفوذاً كبيراً، حتى لقد أقامت احداهن مولداً إحتفالاً بشفاء غلام من الترك عشقته، ودعت «شلكات البلد» وهن المومسات ومشين في أسواق الشام حاملات الشموع والقناديل والمباخر، يغنين ويصفقن بالكفوف ويدققن بالدفوف والناس وقوف صفوف تتفرج عليهن وهن مكشوفات الوجوه سادلات الشعور، وما تم ناكر لهذا المنكر، والصالحون يرفعون أصواتهم ويقولون. . «الله أكبر. . . !».

ولجأ الأهالي للباشا وعرضوا عليه أن ينفيهن أو يجمعهن في مكان، ولكنه أبى خشية أن يدعون عليه في الليل والنهار!.

وفضل الباشا أن يرتب على كل واحدة منهن عشرة قروش في الشهر وجعل عليهن صوباشيا «أي حرساً».

وقد ضاق مؤرخنا أشد الضيق بهذا الجو الفاسد ونعى على الحكام اهمالهم، وابدى غيرته على الاشراف الذين كثيراً ما كانوا هدفاً لعدوان العسكر فكانوا يردون العدوان بمثله وكثيراً ما ذهبت دماؤهم هدراً، ويصرخ البديري نفس صرخة الجبرتي قائلاً: «انظروا يا مسلمين إلى هذا الظلم وقولوا «يا خفي الالطاف نجنا مما نخاف».

طوائف العسكر

تدور المظالم وتتركز حول العسكر الذي عانت منهم الشام عندما سمحت الدولة لكل وال ولكل صاحب عصبية أن يجمع ما يشاء من الجند وتعددت طوائف الأجناد فوضع رجال العصابات وقطاع الطرق محل الجنود، وبدأت المنازعات بين طوائف العسكر.

وها هو البديري يستعرض طوائف الجند:

- جند الدولة وعرفوا باسم «القبوقول» وهم حرس السلطان من «انكشارية» الدولة.
- الانكشارية اليرلية، أي المحلية وهم من أبناء الشام.
- اخلاط شتى يستخدمهم الباشا وقت الحاجة كالمغاربة والأكراد والتركمان ويطلق عليهم اسم «اللوند» أو اسم «الدالاتيه».

وكانت الطوائف تتبع كل منها رئيساً والرياسة متوارثة «كان يذهب منهم في كل سنة طائفة إلى حلب وينصب عليهم سردار من كبرائهم، وتقووا في حلب وفتكوا وجاروا حتى رهبهم أهلها وصاهرهم كبراؤها واستولوا على أكثر قراها، بحيث قلت أموال السلطنة وصارت أهالي القرى أرقاء لهم!. «كثيراً ما يقول لهم الباشا «تباً لكم من أعوان» ولمن اتخذكم من أنصار تأخذون العلايف والمال وتهربون من الحرب والقتال والمتطوعون يقاتلون لله

ورسوله ويتسابقون للحرب مع ما قد فعلت بهم من الفعال من قتل وسلب وخراب ديار. . ».

ويحكى أنه عندما أراد الباشا أن يسجل على أهل الشام اعترافاً بأن الأمر لا يصلح إلا بجند الدولة، خرج يوماً من دمشق فدعا إليه علماء المدينة ليسلمهم زمامها أثناء غيابه فأعتذروا إليه قائلين: «يا أفندينا. . نحن أناس منا علماء ومنا فقراء ومنا مدرسون وصناعتنا مطالعة الكتب وقراءتها فقال لهم: «هذا اقراركم، كيف وانتم الأعيان. . ؟» فقالوا بسخرية «حاشا لله، إنما أعيان الشام القبقول»، فتيقن الباشا أن البلد لا تصلح إلا بهم !!!

والآن وبعد أن تجولنا بين بعض صفحات يوميات البديري، ونقلنا صوراً متعددة للحياة في دمشق، نتجول في شوارع دمشق العتيقة وأزقتها نبحث عن الخيط الرفيع الذي يربط الماضي بالحاضر، ونجيب على سؤال: ما الذي تبقى من دمشق العثمانية، وما الذي بقي من دمشق التاريخ؟. . . كما وصفها البديري. . المؤرخ الحلاق.

وهل زال إلى غير رجعة عصر الباشوات، وعهد الحكومة الموزعة السلطان، وعهد العصبيات، وزعماء ورؤساء الأجناد. . ؟

* * *

فلنبدأ بجولة في دمشق القلب والرمز معاً. التي مر بها صلاح

الدين في طريقه إلى صد الغزو الصليبي، ومر بها الظاهر بيبرس عندما واجه الغزو المغولي. .

«الكثير من الدروب تقود إلى دمشق» قول قديم تردد صداه عندما كنت في طريقي إليها، وعندما كنت انتقل في شوارعها وبين أحيائها، واقف متأملاً آثارها واستنشق عبير غوطتها، فكم شهدت من الحوادث والخطوب. .

الحركة لا تنقطع في دمشق، ولا تكاد ترى فيها ركناً ينعم بالهدوء يحتل أبناء العاصمة بروحهم المرحة المقبلة على الحياة أماكنهم على المقاهي، والسيارات متزاحمة وسط المدينة، الأطفال يلعبون في الأزقة، ولا تنتهي الحركة ولا تسكن الضوضاء إلا مع سكون الليل.

إن الجولة في دمشق وحولها تكشف معالم «عبقرية» موقعها الخالد، الذي يحدده كل من جبل قاسيون ونهر بردى وبساتين الغوطة. .

أشاهد بانوراما دمشق من فوق ربوة عالية فوق جبل قاسيون، وترى مساجدها التي تصل إلى ما يزيد عن ٢٥٠ مسجداً، وتشاهد لوحة فنية عناصرها أحياء المدينة الجديدة التي امتدت حول دمشق العتيقة، وتظهر أسواقها ومساجدها ومبانيها تلتحم ببساتين الغوطة.

دمشق العتيقة تحاصرها وتزاحمها دمشق البنايات العالية والأحياء الجديدة والشوارع الحديثة والطرق العلوية . .

وإذا شئت أن تبحث عن بقايا مسرح يوميات البديري الحلاق، فعليك بدمشق القديمة دمشق المسجد الأموي وسوق الحميدية، دمشق الجوامع والحمامات والأسوار في هذه البقعة التي تمثل قلب دمشق تتراكم وتتداخل مراحل التاريخ المختلفة وفيها تعاقبت الحضارات، والتحم بين شوارعها المتحاربون، والتي ما زالت علاماتها قائمة، السور، وأبواب دمشق وقلعتها، فالقلب ما زال ينبض بالحياة في المقاهي والمطاعم والأسواق، وفي دمشق العتيقة يجد العربي ذاته . .

ويتشبث أهل دمشق ببقايا تاريخ مدينتهم .

ويخفق القلب لهذه البقعة التي استمرت بملامحها على مر التاريخ بإرادة لا تقهر، ومازالت أغنى المدن العربية بالفن العربي، ويجري على ألسنة أهلها مثل يعبر عن تعلق أهل دمشق بمدينتهم العتيقة يقول المثل «اللي مالو عتيق . . مالو جديد . . » وما زالت الأحياء القديمة التي وصفها البديري على حالها، تضم مسجداً وأسواقاً وحماماً وباباً يغلق خلال الليل، ولكل حي شيخ وحارس، تضم خلف أبوابها أحزانها وطموحاتها، وتحفل هذه الأحياء بلمحات من أيام عزها وتمتلىء أسواقها بكل ما كانت تفاخر به دمشق من السيوف المجلاة بآيات القرآن، والذي تحول من نصل في ساحة

الوغى إلى تحفة فنية، وما زالت المنسوجات الدمشقية الشهيرة مثل «البروكار» أجود أنواع الحرير الدمشقي، كما يصادفك كثيراً تلك المنتجات الخشبية المطعمة بالصدف.

الجامع الأموي

لا بد أن يستوقفك الجامع الأمويَ ذلك الأثر الباقي، والذي يمثل التعبير الفني والحضاري، بما يميزه من لوحات رسمها الفنان العربي فوق جدرانه وعلى أعمدته وهي لوحات من الفسيفساء تصور القرى والمدن التي تحف بها الأشجار والرياض والانهار والتي كانت تغطي يوماً سائر جدران الجامع وأقواسه، وما تبقى منها ثروة فنية كبيرة، والذي استلهم اتجاهه من عالم النبات وعالم الكائنات الحية وعالم الاشكال الهندسية وعالم الحرف الذي كتب به القرآن الكريم . .

وكان أحد الحكام، في عصر تغلبت فيه النظرة المتخلفة للفن قد ستر لوحاته بطلاء من طين، في ذلك العصر الذي ينقل صورة البديري الحلاق، وبقيت محجوبة إلى أن كشف عنها عام ١٩٢٨ .

البيت الدمشقي

وإذا انتقلت من صخب الأسواق والألوان ودلفت في احد الأزقة ودخلت أحد البيوت الدمشقية القديمة، فسترى نواة دمشق العتيقة ورمز استمرارها ووحدتها الرئيسية، والذي تحول عدد منها

إلى مزارات ومتاحف مثل بيت العظم، وذلك البيت القريب من الجامع الأموي والذي يضم عدداً من الصور واللوحات التي التقطت لدمشق القديمة، والتي تضمنها صور متحف هارفارد. .

ويشعر أهل دمشق بالحزن والأسى عندما تضرب المعاول أحد البيوت القديمة الباقية.

وتعود أغلب البيوت القائمة حالياً إلى أيام العثمانيين، الفترة التي نقلها إلينا البديري الحلاق، وليس للبيت الدمشقي شكل خارجي جذاب، فقد أقيم لساكنه، وهو عالي الجدران مفتوح القلب، يشبه غيره من البيوت العربية في القاهرة أو بغداد، به باحات واسعة، تطل عليها الغرف من الداخل وتظلل باحته الأشجار والرياحين، وبه ايوانات وقاعات مزخرفة، ويقودك المدخل إلى الصحن المزين بالاقواس والزخارف وهو يتكون عادة من طابقين، تمضي العائلة الشتاء في الطابق العلوي الذي يكون أكثر دفئاً لتعرضه للشمس، وتمضي الصيف في الطابق الأول الذي يكون رطباً معتدلاً والشرفات تتجه إلى داخل البيت، وإذا اتجهت إلى الخارج، تكون على شكل مشربيات تحجب سكان البيت عن أعين الفضوليين، ولا يرتفع مبنى وسط هذه المنازل سوى مآذن الجوامع، وترى داخله، الآيات القرآنية والأشعار، والحكم العربية في أعمال فنية من النحاس وعروق الفضة، وتتعشق فروع الياسمين مع خشب السلم، وداخله أعمال جميلة من الصدف

والموزاييك والفسيفساء وتمر داخله مياه بردى التي تتميز بعذوبتها وبرودتها حتى في أشد أيام القيظ. . !

قصر العظم

تحول أهم أثر معماري لهذه المرحلة التي يسجلها البديري الحلاق إلى متحف، وهذا الأثر هو قصر العظم الذي أقامه أسعد باشا العظم. .

وما زال يقام داخله الحفلات الرسمية، وتقوم فيه عروض الفنون الشعبية، كما يضم القصر متحفاً للشمع، يعبر عن الفنون والعادات والتقاليد الدمشقية وإذا كان العصر العثماني لم ينل من المؤرخين العناية الكافية بحجة أنه اتسم بالجمود والركود، إلا أن ذلك لا يبرر هذا الاهمال، خاصة أن العديد من الظواهر الاجتماعية والعادات والقيم السائدة ترجع إلى هذا العصر، علاوة على ما خلفه من آثار معمارية، بل أن العديد من الوقائع تعود جذورها إليه. .

وقد نقل إلينا البديري الحلاق في سجله قصة ولاية كل مز سليمان باشا العظم وأسعد باشا العظم وقد اختلف الباحثون في أصلهم، فالبعض يقول أنهم عرب من معرة النعمان والبعض يقول أنهم اتراك، وقد اعتمدت الدولة العثمانية على أفراد هذه العائلة واستخدمتهم في الولايات السورية حتى جاء وقت كان يشغل منصب الولاة في دمشق وحلب وطرابلس وصيدا في القرن الثاني

عشر الهجري باشوات منهم، بل وتولى بعضهم ولايات عربية أخرى مثل مصر والموصل. . وخشيت الدولة العثمانية ان تؤدي طول اقامتهم في سوريا إلى استقرارهم وقوتهم، فعصفت بهم وشتتتهم عن سوريا، وكان جزاء أكثرهم من الدولة القتل والمصادرة! . .

وأما سليمان باشا فقد تولى في فترات مختلفة باشوية كل من صيدا ومصر ودمشق ويلاحظ تأرجح البديري في مدح كل من سليمان باشا وأسعد باشا أحياناً ونقدهم وذمهم أحياناً أخرى، فمثلاً يقول عن سليمان باشا أنه قام بـ «تعمير نهر القنوات وترميمه من ماله الخاص، مما لم يسبقه إليه أحد من أيام التيمور «تيمور لنك» ثم يعود ويقول «ولهجوا بالذم والنكال وقالوا قد جوع النساء والرجال والبهائم والأطفال، حتى جمع هذا المال من أصحاب العيال ولم يراقب الله ذا الجلال. . »

وله ذات الموقف من ابن أخيه أسعد باشا، الذي تولى باشوية دمشق أربعة عشر عاماً، والذي كان أطولهم حكماً. وامتلأت فترة حكمه بالصراع بين الجند، وقد شغل الباشا ببناء قصر العظم الذي ما زال تحفة فنية رائعة. .

وهذه قصة بناء القصر كما يرويها البديري خلال أحداث عام ١١٦٣هـ ١٧٤٩م .

في تلك الأيام أخذ أسعد باشا دار معاوية مؤسس الحكم الأموي، وأخذ ما حولها من الخانات والدور والدكاكين وهدمها

وشرع في عمارة دار السرايا المشهورة التي هي قبلي الجامع الأموي. وجد واجتهد في عمارتها ليلاً ونهاراً، وقطع لها من جملة الخشب الف خشبة، وذلك عدا ما أرسله أكابر البلد والأعيان من الأخشاب وغيرها، ورسم على حمامات البلد أن لا يباع قصر لاحد، بل يرسل لعمارة السرايا، واشتغل بها غالب معلمي البلد ونجاريها وكذلك الدهانين، بل قل أن يوجد معلم متقن أو نجار أو دهان كذلك إلا والجميع مشتغلون بها، وجلب لها من البلاط من غالب بيوت المدينة، أينما وجد بلاط أو رخام، وغير ذلك مثل عواميد وفساقي يرسل فيقلعهم ويرسل القليل من ثمنهم، وكان قرب تربة البرامكة قصر يقال له الزهرابيه، قيل هو من عمارة الملك الظاهر، وهو على ظهر بانياس يطل على المرجة، وكان مكان منتزه عظيم تهدم غالبه، وفي قربه مدفن وعليه قبة من حجر ورأس القبة مقلوع.. فأمر بهدمها ونقل حجارتها إلى داره..

وبلغ أسعد باشا أن جوار دار ابن كيوان طاحونة قديمة، يقال لها طاحون الرهبان تهدمت ولم يبق منها سوى رسوم أسفلها، فأمر الباشا بقطع نهر بانياس وأن يخرجوا جميع ما فيها من أعمدة وأحجار وينقلوها إلى الدار، فاشتغلت الفعالة والحجارة والبساتنة، واستقاموا يقلعون الأحجار وينقلونها إلى دار الباشا لمدة اثني عشر يوماً والنهر مقطوع عن أصحابه..!

وعندما أقام حسن أفندي السفرجلاني وليمة لحضرة أسعد باشا

بالصالحية في قاعة ابن فزلق، نظر الباشا إلى سروات شاهقات في داره، فطلب من صاحبها علي آغا قطعها لاجل عمارة داره، وعرض أسعد باشا على صاحب العمارة شيئاً من المال فأبى، وقطع له ثلاث سروات ليس لها نظير في الشام ولا في غيرها، ونقل من قرية بصرى احجاراً وأعمدة من الرخام شيئاً كثيراً وأخذ من مدرسة الملك الناصر التي في الصالحية أعمدة غلاظاً جيء بها على عربات تجر بالبقر، فمهما سمع ببلاط بديع أو أعمدة أو أحجار من أي محل كان يأتي بها شراء وغير شراء.

وفي تلك الأيام قتل ابن خطاب الدالاتي في سوق البزورية وقت آذان العشاء وجاء ضرب سلاح على رأسه، أخذ نصف رقبته مع رأسه، فوقع قتيلاً كأنه ما كان، هذا ووزير الشام مشغول في عمارة داره، ولم يلتفت إلى رعاياه وانصاره، ويقول: «ائتوني بحجارة المرمر والرخام والسرو، وتفننوا بالبناء والنقوش والتحلية بالذهب والفضة، وجلب عواميد الرخام على العجلات والبقر من بصري، وخرب سوق مسجد الأقصاب، واستجلب جميع ما فيه من أحجار وأخشاب، وكل ما سمع بقطعة أو تحفة من رخام أو قيشاني أو غيرها يرسل فيأتي بها ان رضي صاحبها أو أبى، وأخذ الباشا قدراً وافياً من ماء القنوات، فلما وصل إلى السرايا حتى تقطعت السبل، ومياه غالب الجوامع والحمامات وبقي مدة مقطوعاً حتى عن غالب البيوت.. وكبر أسعد باشا داره الجديدة الذي ما

صار نظيرها ولا عمل مثلها ولا وجد في الكون لها مثيل. . !»

هذا هو أهم نموذج للبيت الدمشقي، وهذه هي حكايته كما سجلها البديري الحلاق، وبقي ان أذكر أن أسعد باشا صاحب القصر انتهت ولايته بالعزل ثم لقي مصرعه كأغلب ولاة هذه الفترة! . . وحتى اليوم تصل إلى «عالم» البيت الدمشقي عبر منعطفات ضيقة، ومن خلالها بوابات فأي أمن وسكينة يمكن أن يشعر به ساكنه، ولم يكن معروفاً في دمشق العثمانية الاستحمام في المنازل بل في الحمامات العامة وكان آخر احصاء لحمامات دمشق عام ١٩٤٠ يصل إلى سبعين حماماً كما ذكر المهندس الفرنسي ليكوشار، وبقي في دمشق اليوم تسعة حمامات سجلت كمبان أثرية يحظر هدمها.

المتحف المسكون . .

ما زلنا نتجول في دمشق العتيقة تقطع دروبها الضيقة المسكونة، «الشامي» بسراويله الفضفاضة وعمامته المميزة يسير إلى جانبه بدوي لوحته الشمس يرتدي كوفية وعقال ويقطع هذا التناسق أزياء أوروبية حديثة يرتديها عدد من المارة، والنساء السافرات يعبرن الطريق جنباً إلى جنب مع المحجبات بزيهن القديم. .

وما زال جو دمشق له طعم خاص ومعبق بروائح مميزة، وما زالت دمشق القديمة تقسم إلى حارات وأحياء ولكن لم يعد التقسيم كما كان على أسس قبلية.

وكثيراً ما تستوقف المتجول صور كأنها من القرون الوسطى، مثلاً باب ضخم لزقاق البرغل، أو ترى بيوت الحي وقد تقاربت مشربياتها حتى تكاد تتلامس وتحجب الشمس عن الزقاق. .

وهذه الأحياء مثل المتحف المسكون. . وهي المسرح القديم لما سجله البديري الحلاق، والذي يمثل صحافة ذلك الزمان، ولكنها صحافة بلا رقابة، وهذه بعض الصور التي نقلها:

- في خامس عشر ذي القعدة جرموا ثلاثة أشخاص ودوروهم في كل البلد مسخمين الوجوه راكبين على حمير بالمقلوب، فسألنا عن السبب. فقيل أنهم يسكون الفلوس الرملية «يزيفون النقود».
- خرجنا إلى سيران ناحية الشرق المطل على المرجة مع بعض أحبابنا وكان الوقت في مبادىء خروج الزهر وجلسنا مطلين على المرجة والتكية والسليمية، وإذا بالنساء أكثر من الرجال جالسين على شفير النهر. وهم على أكل وشرب. وشرب قهوة وتتن «الطباق» كما يفعل الرجال، وهذا شيء ما سمعناه بأنه وقع نظيره حتى شاهدناه ولا حول ولا قوة إلا بالله. .».

أين باب النصر. ؟!

ودمشق العتيقة ما زال يحيطها السور في العديد من أجزائها، وبقيت من أبوابها التسع سبعة أبواب ليس من بينها باب النصر، بدأت جولتي مع السور عند باب توما الذي يرتفع عنده السور

بأحجاره الضخمة ويصل إلى ما يزيد على خمسة أمتار ويختلط السور في العديد من أجزائه بمباني المدينة، وعلى يمين باب توما تشاهد أحد أحياء دمشق المتواضعة، وهو من أجمل مناطق دمشق، بيوت دمشق القديمة تطل على نهر بردى في محاذات السور، ولكل بيت جسر خاص يصله بالطريق، ويتلوى السور ويتعرج مع النهر في منظر خلاب، يختلط فيه الجمال بالتاريخ وترى دمشق من هنا بقلبك لا بعينيك وحدها.

وعلى هذا الجانب من السور كان النهر يستخدم كخندق للدفاع عن المدينة وتتبعت السور ما وسعني، بعد ان تغيرت العديد من أجزائه، وساهم نهر بردى في حماية هذا الجانب من السور، وعاش السور مع دمشق أيام سعدها وأيام شقائها، وأعيد تحصينه أيام نور الدين عام ٥٤٩هـ وأقيمت له أبواب لم تكن قائمة مثل باب الفرج وباب النصر وباب السلام وبقيت من أبراجه برج نور الدين الواقع جنوب باب الجابية في خان السنانية، وبرج الملك الصالح أيوب الواقع شرق باب توما. واستفاد المجددون من أبوابه القديمة، ومنها البابان اللذان يصلان إلى طرفي الشارع المستقيم الذي يقطع محور دمشق ويصل الباب الشرقي بالباب الغربي.

ويحكي البديري الحلاق جانباً من جوانب دمشق وتعاستها، عندما يؤرخ للوقائع التي دارت عبر هذا السور وإلى جانب أبوابه، وخاصة الباب الصغير، عندما مزقت دمشق قتال الأجناد، أيام كان

القتال بين الطوائف وليس ضد العدو الغاصب، ومن أجل السلب والنهب وليس من أجل استرداد الحقوق، ويقول مؤرخنا:

«جاء خبر قتل متسلم دمشق «نائب الباشا» قتله عرب الزبيد وقتلوا من جنده جماعة من العسكر، فساروا حتى وصلوا للعرب المذكورة، ففاجأهم المتسلم وجنوده، على حين غفلة بالقتل وغيره وأرادوا أخذ أموالهم ومواشيهم، فردوا عليهم رد غيور صبور، فقتلوا المتسلم المذكور وجماعة من عسكره، فحين بلغ هذا الأمر أكابر دمشق اجتمع الديوان وأمروا منادياً ينادي: من أراد طاعة الله والسلطان ممن له قدرة وقوة على الركوب فلا يتخلف، فالغارة على عرب الزبيد الذين قتلوا المتسلم وعسكره، فخرجت الانكشارية والسباهية والزعماء، وعينوا نائباً بدمشق ثم ساروا للعرب، ورجعوا ومعهم جسد المتسلم «المقتول» وهو في حالة عبرة لمن اعتبر ثم غسلوه في سراية الحكم ودفنوه في باب الصغير».

«أحد أبواب دمشق في الجزء الجنوبي من سورها إلى جانب جبانة تضم رفاة الصحابي الجليل بلال «والمقتول كان اسمه إبراهيم وهو مملوك سليمان باشا ابن العظم حاكم الشام وكان له ظلم وعدوان وجرأة على الخاص والعام، وكان يأمر بالقبض على كل من رآه بعد العشاء ويأمر بتقييده في الحال بالحديد، إلى أن يأخذ منه الكثير من المال وإذا أذنب أحد ذنباً ولم يقدر على القبض عليه يقبض على أحد من أهله أو قرابته ويلزمه بمال عظيم، وإذا نهاه

أحد عن تلك الأحوال يجرد ويطلب الارتحال ولا زال بظلمه وعنوه إلى أن أخذه الله . .

أفراح دمشق

أما أفراح دمشق فهي تثير مثل احزانها الدهشة يقول الحلاق في غرة ربيع الأول من هذه السنة شرع حضرة والي دمشق الشام سليمان باشا العظم في فرح لأجل ختان ولده العزيز أحمد بك، وكان في الجنينة التي في محلة العمارة وجمع فيه سائر الملاعب وأرباب الغناء واليهود والنصارى واجتمع فيه من الأعيان والأكابر من الأفندية والاغوات ما لا يحصى، واطلق الحرية لأجل الملاعب يلعبون بما شاؤا، من رقص وخلاعة وغير ذلك، ولا زالوا على هذا الحال سبعة أيام بلياليها، وبعد ذلك أمر بالزينة فزينت أسواق الشام كلها سبعة أيام، بايقاد الشموع والقناديل زينة ما سمع بمثلها، وعمل موكب، ركب فيه الاغوات والشربجية «الاعيان» والأكابر والانكشارية، وفيه الملاعب، الغريبة، من تمثيل شجعان العرب وغير ذلك، وثاني يوم طهر ولده أحمد بك وأمر من صدقاته أنه يطهر من أولاد الفقراء، وغيرهم ممن أراد فصارت تقبل الناس بأولادهم وكلما طهروا ولداً يعطوه بدلة وذهبين، وأنعم على الخاص والعام، والفقراء والمساكين بأطعمة وأكسيه وغير ذلك، مما لم يفعل أحد بعض ما فعل، ولم نسمع أيضاً بمثل هذا الاكرام والانعام على الخاص والعام.

وما زال للافراح في دمشق اهتماماً خاصاً ولكن ليس على هذا النحو. .

قلعة دمشق

تظهر قلعة دمشق من مواقع متعددة وقد تعذر زيارتها بعد أن تحولت من أثر تاريخي إلى أحد السجون، وهي تقع في الزاوية الشمالية الغربية من دمشق القديمة، وتمتد من باب الفرج في السور الشمالي إلى محل باب النصر عند مدخل سوق الحميدية.

وتحكي القلعة حقيقة تاريخية هامة من التاريخ العربي، فقد صمدت أمام الغزو الصليبي والمغولي، وفيها أقام صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس ومن القلعة قاد صلاح الدين جيوشه إلى حطين، وقاد الظاهر بيبرس جنوده لتطهير البلاد من التتار.

وقد شهدت هذه القلعة بعض الأحداث التي يرويها البديري الحلاق، فهي التي هرب إليها القاضي عندما عمت الثورة البلاد يقول:

«قامت العامة من قلة الخبز وغلو الأسعار وهجموا على السرايا رافعين أصواتهم بالبكاء والتضرع، قائلين ما يحل من الله قلة الشفقة على العباد الذين تضرروا بالغلاء وأنت حاكم الشام ومسؤول عند الله عنا وعن هذه الأحوال، فقال لهم أسعد باشا اذهبوا إلى المحكمة واشكوا حالكم إلى القاضي. .

فأقبلوا نحو المحكمة، واصطرخوا فيها يشكون حالهم وما أصابهم وما واقع بهم، فخرجت جماعة القاضي بالعصي وطردوهم، وكان ذلك بأمر نائبه، فهجمت العامة ورجموهم بالحجارة فأمر القاضي وأعوانه أن يضربوا بالبارود فضربوهم، فقتلوا منهم رجلاً شريفاً وجرحوا منهم جماعة، فغارت العامة عليهم، وساعدهم بعض الانكشارية فهزموا القاضي وقتلوا باشي جوقدار وبعض أعوانه، ونهبوا وحرقوا بابها، وسكرت الناس البلد، فركب بعض الاغاوات ورد الناس، واما القاضي فقد هرب من فوق الأسطح هو ونائبه وجماعته، فأخذه بعض الأكابر وصار يأخذ بخاطره، فحلف القاضي لا يسكن هذا الشهر إلا بالقلعة، فجمعوا مال القاضي ومتاعه والذي نقص منه فرضوه على خزينة «الانكشارية» وعلى بعض الأكابر والأعيان، وارضوا القاضي وصالحوه وإلى المحكمة ردوه . ».

ويروي الحلاق في موضع آخر ما يقع عندما يتقاتل الأجناد المختلفة ونتيجة القتال على أحياء دمشق وسكانها «الذي لا ينالهم سوى» نهب المال وسب العرب وسب الدين، وغير ذلك من الفظائع، ولما زادوا عتواً وفتكاً، لم يراقبوا حضرة الحق جل جلاله، ارسل الله ريحاً شديدة على الشام ما رؤى مثلها في سالف الأيام. . !! فقلعت الأشجار من أصولها ورامت غالب الجدران، حتى ظن الناس ان القيامة قد قامت.

ثوب جديد.

ابتعد عن دمشق القديمة، وادخل إلى دمشق الجديدة، دمشق العمارات الشاهقة والشوارع العريضة، اجوس في أحيائها واجلس في فنادقها، واتجول في أسواقها..

ودمشق في تغير مستمر، ولها كل يوم ثوب جديد تنمو بسرعة تفوق التوقع، ويظهر حزام وراء حزام من الأحياء الجديدة، وترى تغيرها في الجسور التي تقام فوق مفارق الطرق المزدحمة، والمباني الحكومية الجديدة..

وقصر الرئاسة وقصر المؤتمرات فوق جبل قاسيون..

أما الأحياء الجديدة والتي تمتد في حي المزة، وتقيمها جمعيات البناء التعاونية وينتقل إليها أثرياء دمشق الجدد، فيتوفر لها الشوارع العريضة والمنتزهات والمباني الفاخرة..

وأخذني أحد أبناء دمشق بسيارته في جولة في الأحياء التي تقع بين القديم والجديد ويشتد فيها الحوار بين القديم والجديد، بدأت الجولة في حي المهاجرين الذي يقع تحت سفح جبل قاسيون في الطرف الغربي من الصالحية، والذي نزله قديماً المهاجرين من مسلمي كريت، واستمر نقطة جذب الأسر الدمشقية الموسرة والتي انتقلت فيما بعد إلى أحياء الجسر وعرنوس والشهداء، وهذه الأحياء

اقامتها الجالية الفرنسية أيام الاستعمار، وهي تمتد بين الصالحية ودمشق القديمة وقد أقامها الفرنسيون على الطراز الغربي ولكنها لا تخلو من نفحات الفن الشرقي.

أما السوق الحديث فقد أقيم في شارع الصالحية، وبه أحدث الموديلات وكافة المنتجات، وانتقل إلى هذا الشارع المؤسسات الحكومية والتجارية، وأصبح حي الأعمال وأخيراً يصل شارع الصالحية إلى الأحياء الواقعة على سفوح قاسيون. . ويمضي مرافقي شارحاً. . «في الوقت الذي أقيمت فيه أحياء المهاجرين والأكراد على سفوح قاسيون ترعرع حي الميدان جنوب دمشق، والذي تميز بطابعه الديني والتجاري، واسمه يعود إلى أيام الأمويين، عندما كان يستعمل لسباق الخيل، وأخذ ينمو مع الأيام وازداد عدد المهاجرين العرب من المغاربة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، هرباً من الاستعمار الفرنسي والايطالي، وقد أقاموا خان المغاربة، كما استقبل هذا الحي أيضاً عدداً من تجار نجد، وأقاموا فيه سوق الجمال، وسكنه جنود إبراهيم باشا بعد عودته إلى مصر عام ١٨٤٠ وعرف حيهم بحي المصاروة ويعرف الحي بمواقفه الوطنية، وهدم الفرنسيون جزءاً منه عند اشتداد الثورة، وما زال هذا الحي يحمل طابع القدم والعراقة، وما زال يجذب أبناء الريف القادمين إلى العاصمة.

هذه بعض النفحات من تاريخ دمشق، ومن حاضرها، هذه

بعض أيام سعدها وتعاستها، وهي جميعاً تجعلنا نتشبث بدمشق الرمز والدور. .

ولقد أدرك الكاتب البريطاني باتريك سيل هذا الدور الذي يفرضه وضعها الجغرافي السياسي، فقال: «أن الذي يقود الشرق الأوسط لا بد له من السيطرة على سوريا، لأسباب عديدة منها موقع سوريا الاستراتيجي الذي يشرف على الممرات الشمالية الموصلة إلى مصر، وعلى الطريق البري بين العراق والبحر الأبيض، وعلى شمال الجزيرة العربية والحدود الشمالية للعالم العربي، ودمشق العاصمة مركز مراقبة جيد يمكن منه رصد سياسات الدول الكبرى».

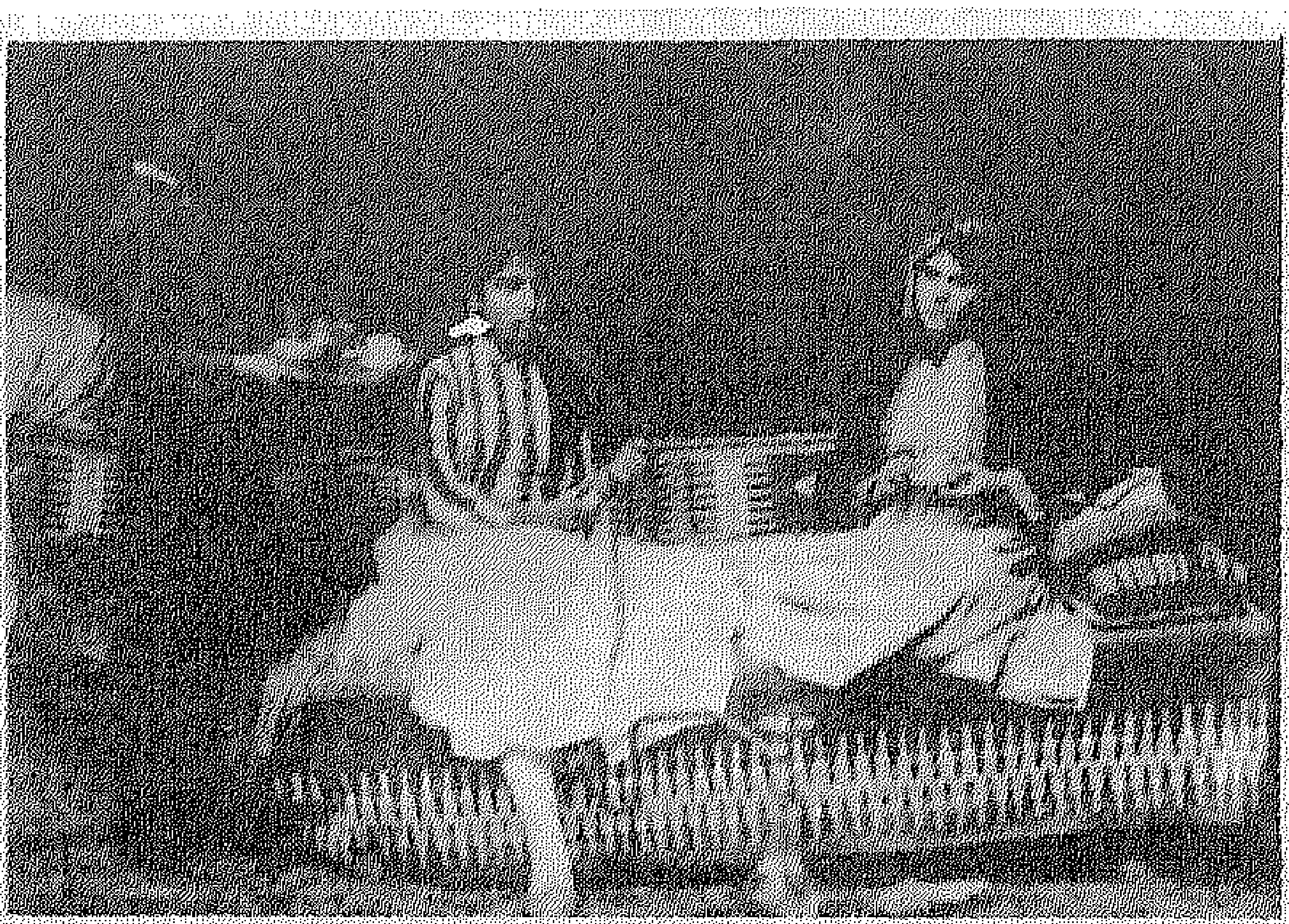

باحة البيت العربي في القرن الثامن عشر

أحد شيوخ دمشق

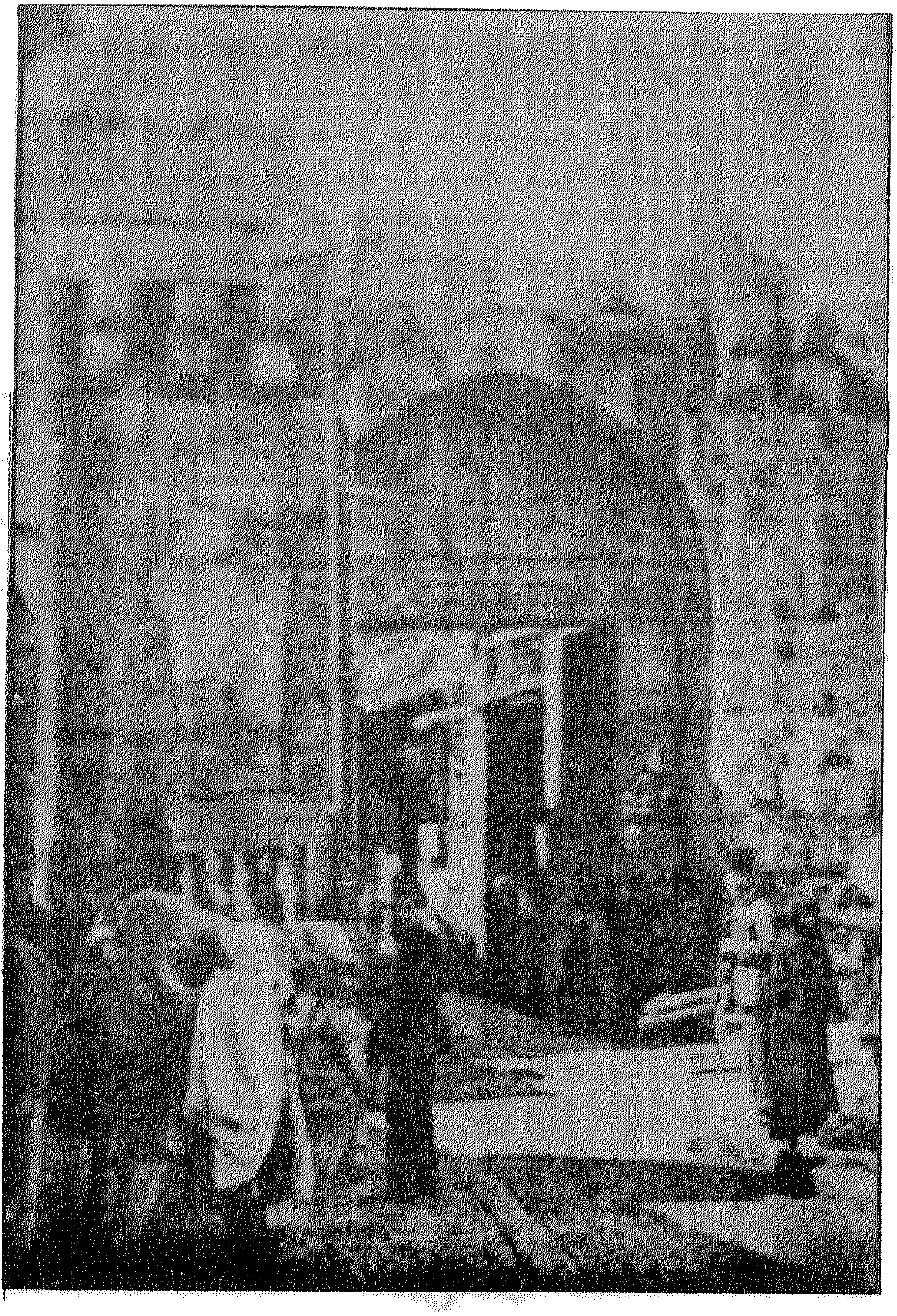

أحياء القاهرة القديمة منذ ما يزيد عن ٢٠٠ سنة

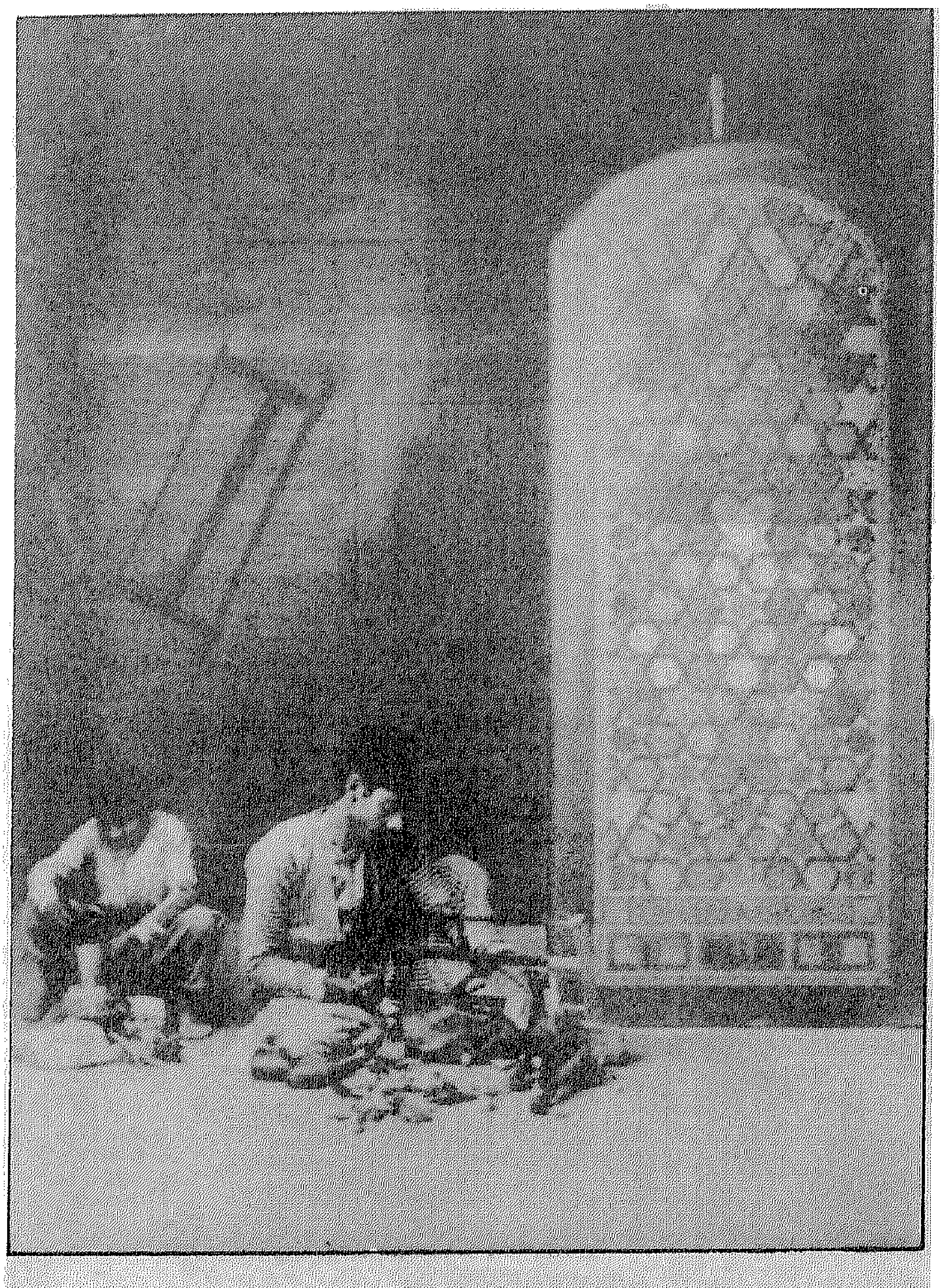

أعمال الترميم بالصدف في الشام

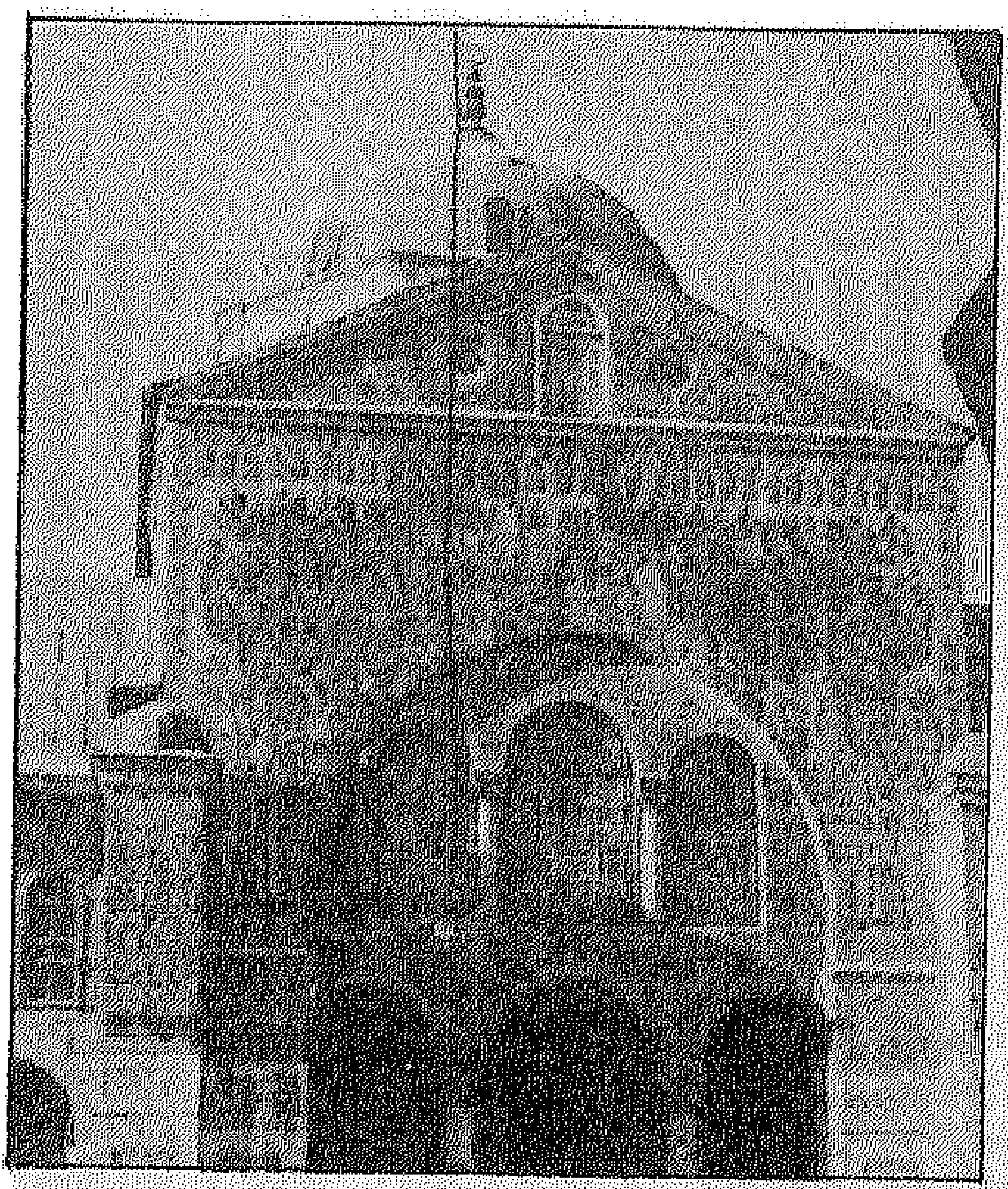

المسجد الأموي

السوق المغطاة القديمة

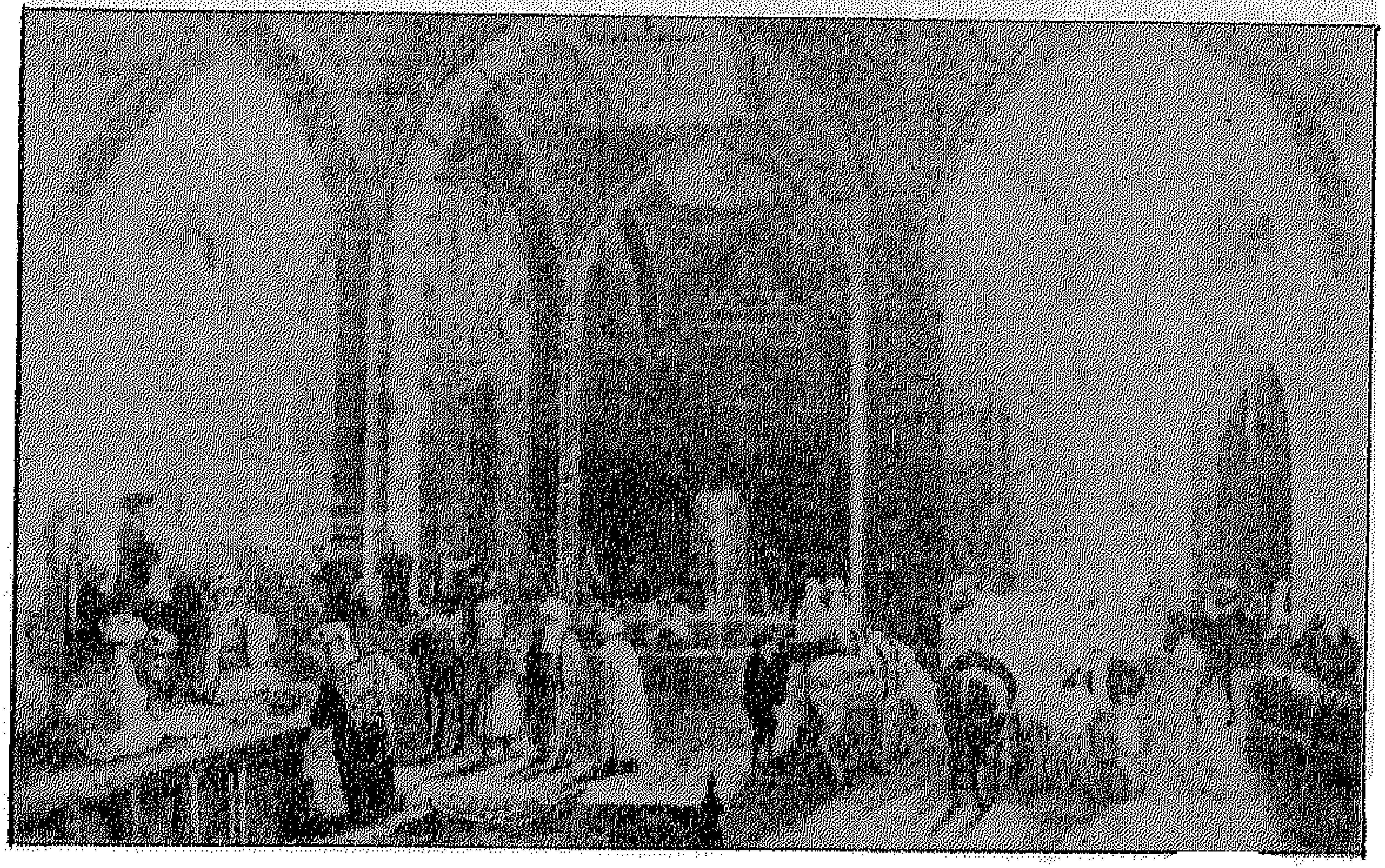

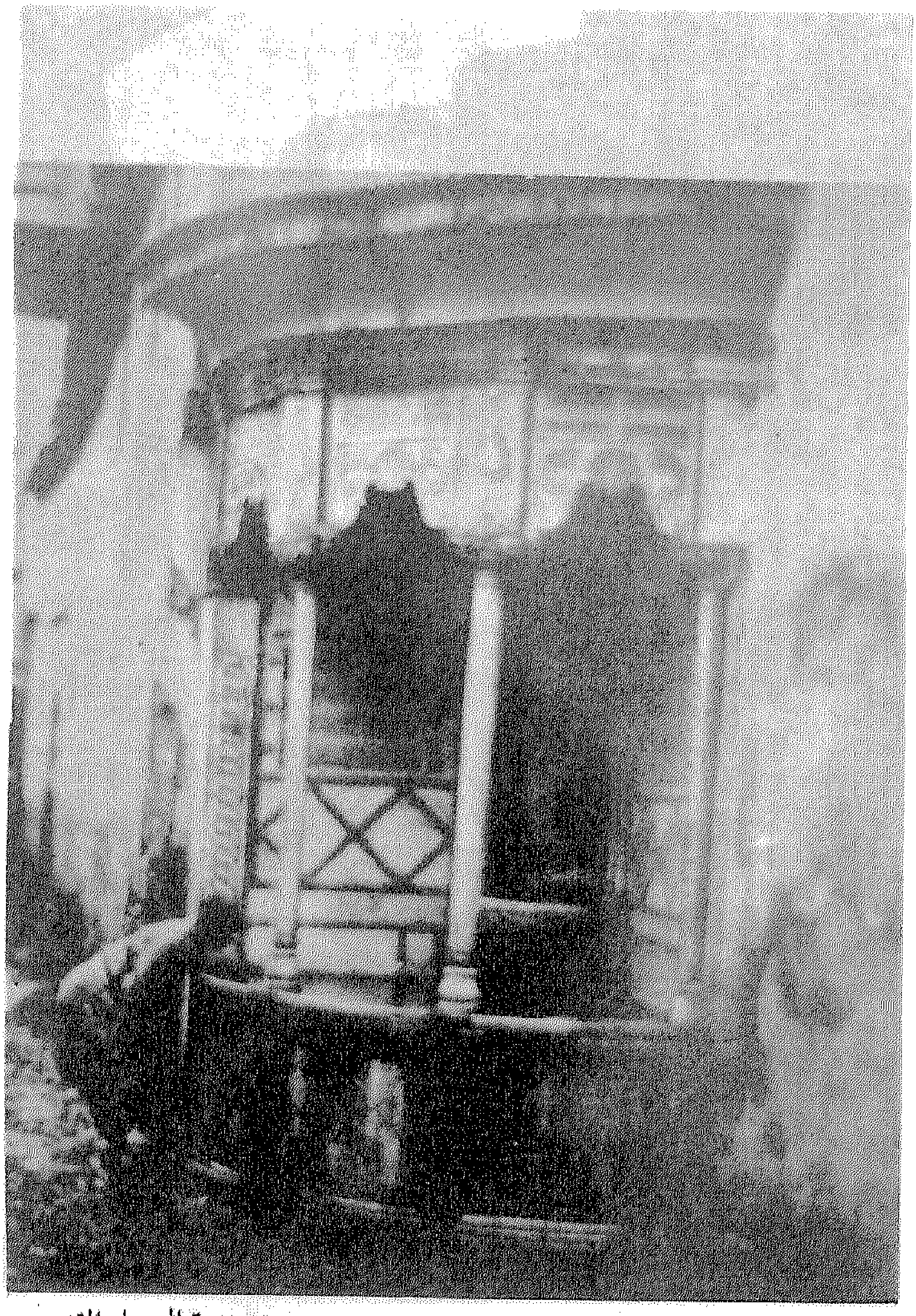

صورة السبيل القديم

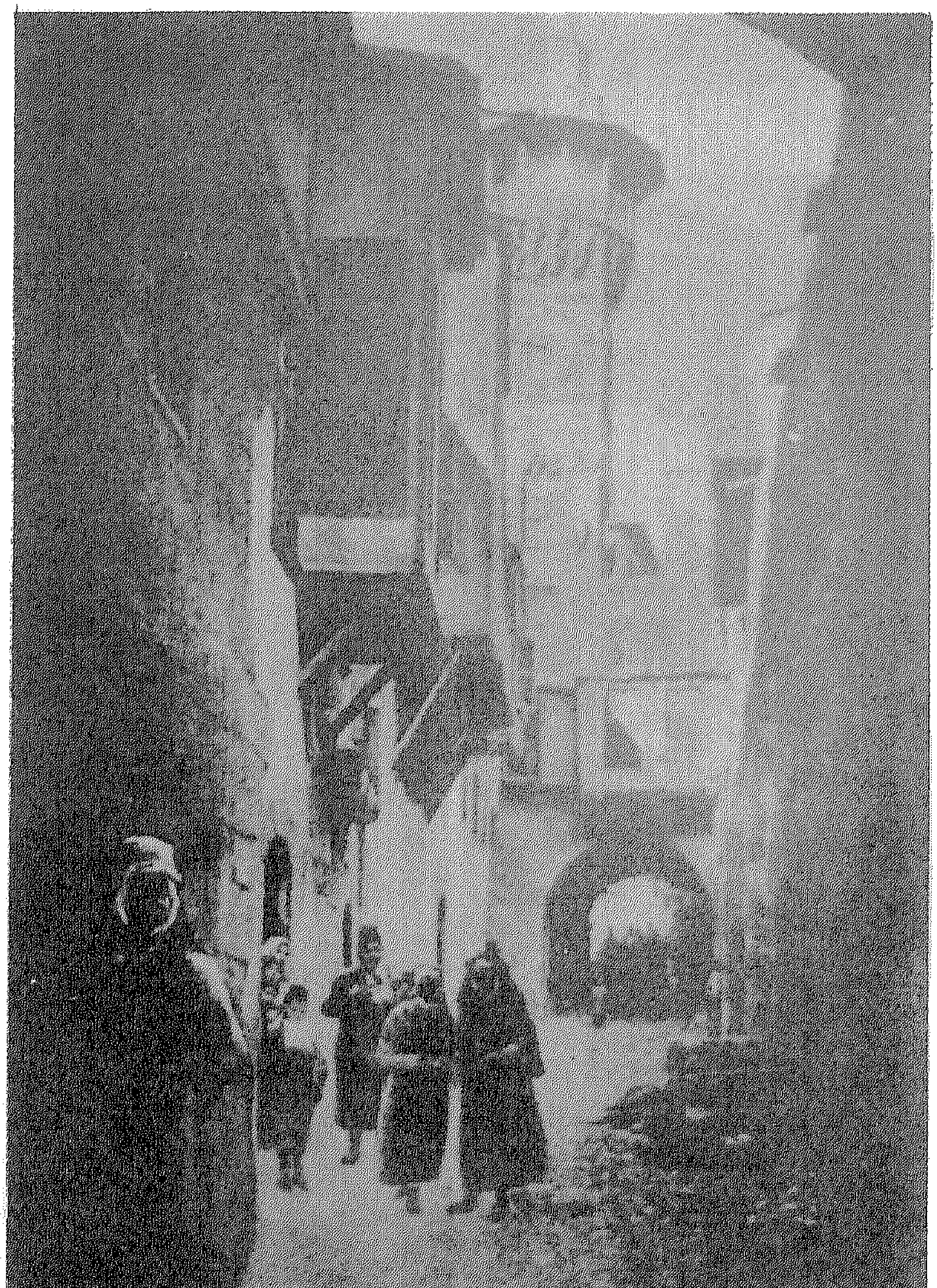

صورة دمشقي في القرن التاسع عشر

رحلة إلى الشرق
في مصر القرن الثامن عشر:
ديمقراطية وصناعة ومؤسسات ودراما

تسود الحياة الثقافية بعض المسلمات، تتردد على ألسنة وأقلام الكتاب، وتصل أحياناً إلى مصاف البديهيات يشغلك الموضوع، يستنفرك، تتأمله وتجمع أطرافه. .

ويقع بين يديك كتاب، يطرح القضية التي تشغلك يقدم الدليل الذي تبحث عنه، ويأتي صوته من الماضي كشاهد عيان من القرن الثامن عشر. .

وهو ما حدث عندما قرأت كتاب «رحلة إلى الشرق» الذي كتبه الرحالة الألماني كريستان نيبور، ووصف خلاله كل مظاهر الحياة في الشرق، قيمه وأفكاره، انجازاته وعاداته، نظامه السياسي وأوضاعه الاقتصادية. .

تصحب الرحالة في جولاته فتتأكد أن أفكاراً مثل الحرية وحقوق الإنسان والتصنيع وبناء المؤسسات وحتى الكثير من الفنون مثل المسرح، ليست ـ كما يدعون ـ وافداً غربياً، وإنما كانت مزدهرة وسابقة على دخول جحافل الغزاة الأوروبيين!.

ولا يمكن أن يتهم دليلنا بالتحيز، في تلك المرحلة التي يندر أن يوجد فيها رحالة أوروبي ينصف الشرق، عندما اختلط الرحالة بالجواسيس، وأخذت تتفاعل داخل الغرب مشاعر متضاربة تنتقل

بين الرومانسية والدوافع الاستعمارية، البعض يجذبه الشرق مهبط الأديان ومسرح رواية ألف ليلة وليلة، ويلهب خيال البعض الآخر ذكريات الحروب الصليبية والتحدي التاريخي الذي يمثله الشرق.

وكان نيبور لمحة ضوء، ولحظة صدق نادرة، وكان عشقه للشرق أداة معرفته، وكانت رحلته قبل الثورة الفرنسية وقبل الحملة الفرنسية على مصر التي يحلو للبعض اعتبارها نقطة البداية لمصر الحديثة. !

وعندما كان الغرب في حالة نهوض يخرج مثل العنقاء من العصور الوسطى ويعيش عصر النهضة أما الشرق الذي يعيش حضارة مغايرة، فقد تجمد فيه التطور تمزقه المنازعات ويمر بأزمة سياسية حادة، وتعيش بلدانه ولايات تابعة للدولة العثمانية. .

وها هو نيبور يقدم شهادته ذات القيمة التاريخية.

أبحرت الباخرة الدنمركية جرينلاند من أحد موانيء الدنمرك في يوم قارس البرد، في الرابع من ديسمبر عام ١٧٦١، وعلى متنها خمسة من العلماء تضمهم ثلاثة جنسيات بينهم متخصصون في اللغات والجغرافيا والعلوم الطبيعية والطب، وصحبت البعثة على عادة تلك الأيام رساماً بدلاً من المصور، وقام بتنظيمها والانفاق عليها الملك الدنمركي فريدريك، وكانت البعثة محل اهتمام وزير الخارجية لما تحمله من أهداف سياسية. .

ولم يكمل الرحلة ويظل حياً من أعضائها سوى نيبور الذي أكملها وسجلها في ثلاثة مجلدات. . وأصبح الشاهد الوحيد على رحلة الموت الطويلة.

وقفت البعثة في اسطنبول لشراء مستلزماتها وأهمها الملابس العربية. ومر على البعثة ١٨ شهراً قبل وصولها إلى الاسكندرية في ٢٦ سبتمبر عام ١٧٦١ عصفت بأعضائها الرياح والمنازعات وأمضت حوالي سنة في مصر تدرس وتنقب، ومنها سافرت إلى جده في الحجاز، وسجل خلالها نيبور كل ما يقابله من جبال ووديان وصخور، وأخذت بقية البعثة تجمع العينات، ومن جده انتقل إلى المخا في اليمن، ويحكي نيبور كيف فزع موظفو الجمارك من العينات داخل الزجاجات التي تحتوي على الحشرات والثعابين، وتعرضت البعتة للمتاعب فهي تهدف إلى دس السم للعرب، وكانت العينات مهددة بالقائها في البحر لولا تدخل بعض التجار البريطانيين لدى الوالي .

وزارت البعثة صنعاء وقابلت إمام اليمن الذي أخذ يستمع بدهشة إلى تفاصيل مهمتهم وأخذ يتساءل عن الملك الدنمركي وأحواله، وفتنت مدينة صنعاء نيبور بأسواقها ومبانيها القائمة فوق الجبال، ومن اليمن قصدت البعثة الهند، وخلال الرحلة تساقط أعضاء البعثة صرعى واحداً بعد الآخر.

ومر نيبور في طريق العودة بمسقط في عمان ثم فارس وزار

بندر عباس وشيراز وبوشهر وجزيرة خرج، ثم وصل إلى البصرة، بعد أن رسم خريطة وافية للخليج العربي، وزار في العراق الموصل وديار بكر وبغداد، وكان أول أوروبي يدخل مدينة النجف، ثم اتجه مع أحد القوافل إلى حلب وزار دمشق، وفي فلسطين زار يافا والقدس وبيت لحم وعكا ورسم بيت المقدس. .

وأخيراً عاد في ٢٠ نوفمبر عام ١٧٦٧ إلى كوبنهاجن وحيداً بعد ستة أعوام، ومعه خرائط وعينات ومذكرات، وكلفت الرحلة الحكومة الدنمركية ٢١ ألف جدالر أي حوالي ٥٠ ألف جنيه استرليني. .

وجمع عدداً كبيراً من المخطوطات النادرة وبدأ يكتب تفاصيل أسفاره بذاكرة لاتكل.

وحدة الشرق

تعاملت البعثة مع العرب والترك والفرس ومسلمي الهند باعتبار الجميع وحدة واحدة، ذات قيم مشتركة وسمات واحدة وطعم خاص، ويبدو نيبور عندما يسجل كل ما يراه أقرب إلى العالم منه إلى الفنان، وكتابه أقرب إلى العمل التسجيلي وتظهر روحه العلمية عندما يشاهد في مصر ما لم تتوصل إليه أوروبا. ولا يملك سوى الدهشة ويتمنى أن تتعلم بلاده من الشرق ما لم تتوصل إليه.

وقد عشق نيبور مصر بشكل خاص. ويكتب: «نعرف مصر

في أقدم ما يصل إلينا من شواهد التاريخ بلداً كثيرالسكان عظيم الشهرة، ونعرف أن تاريخ الشرق ظل يذكر مصر ويكثر من ذكرها. . »

ويلاحظ قارىء رحلة نيبور أنه ابن الحضارة الغربية الذي ينظر إلى كل ما هو خارج حضارته، نظرة تتسم بالدهشة ويظهر دهشة فائقة إذا شاهد صناعة متقدمة أو عملاً فنياً راقياً، ويعود ويظهر دهشته عندما يفاجأ في مصر بوجود صناعة تفريخ البيض التي لم تعرفها أوروبا ـ في هذا الحين ـ واسعة الانتشار، وكذلك صناعة النشادر، وهي نظرة الغرب إلى الشرق التي ما زالت قائمة. .

وتتسم ملاحظات الرحالة بالدقة العلمية ونجده عندما يتكلم عن الاسكندرية يقول: «تقع مدينة الاسكندرية أو سكندرية، كما ينطقها الأهالي. »، وعندما يصل إلى القاهرة يلاحظ أن اسم القاهرة لا وجود له سوى في الكتب فالأهالي يقولون عنها مصر، ويرسم خريطة للعاصمة بدقة نادرة، ويقيس بعض شوارعها بالخطوات وكانت عملية بالغة الصعوبة، «رسمت خريطة لكل من القاهرة، والمدن القريبة وهي بولاق ومصر العتيقة والجيزة، وكانت مهمة شاقة بل وخطيرة لتعنت أهل القاهرة مع الأوروبيين، وهذه المهمة لم يقدم عليها أوروبي. ولكني تجاسرت وقمت بقياس أطوال كل الشوارع بالخطوات وبخاصة المفتوحة، وقمت بتحديد اتجاهاتها مستعيناً ببوصلة صغيرة. .

وبين الشوارع الرئيسية أحياء يقيم فيها أصحاب الحرف وغيرهم من فقراء الأهالي الذين لا يعملون كما هو مألوف في الغرب في بيوتهم، بل يعملون، في دكاكين صغيرة بالسوق، ينتعشون وينتظمون داخلها. .

ولهذا كان غريباً ظهور أحد الغرباء خلال النهار، فليس مألوفاً ذهاب أحد لزيارة صديق في بيته، ومن يقابل الغريب يتصور أنه ضل الطريق، ويلفت نظره إلى أن الشارع مسدود لذلك تعذر زيارة كل الأحياء. .».

ورغم كل هذا الجهد العلمي إلا أنه يشوب بعض ملاحظاته اعتماده فيما يسوقه على خادمه اليوناني وطباخه اليهودي. .

حياة مصر السياسية

كانت مصر عندما زارها نيبور ولاية عثمانية؛ ونجح المماليك في الحصول على أحد صور الاستقلال الذاتي، وكان يدور في أرضها صراع رهيب بين قطبي المماليك محمد أبو الدهب ومحمد علي الكبير، ورغم هذه الظروف شهدت البلاد أحد صور الديمقراطية، ويعرض نيبور لنظام الحكم بقوله: «إن نظام الديوان فيه سمات الديمقراطية النيابية، فكان الديوان يعزل الوالي إذا غضب عليه.

وعندها يرسل مبعوثاً الى الوالي يطلق عليه «أبو طاقية» والذي يقوم بفرش البساط الأحمر تحت قدميه إشارة إلى رغبة الديوان في تخليه عن الولاية».

ويصف: «نظام الديوان بأنه يخضع للأفكار «الجمهورية» فهو يتكون من البكوات ورؤساء القوات المصرية والعديد من وجهاء القاهرة من شيوخ الأزهر الشريف ورؤساء الحرف، وكثيراً ما يعزل المصريون الوالي المعين من قبل السلطان وقد شهدت خلال وجودي في مصر طرد الوالي، والباشا، أي الوالي هو الذي يعين في المناصب العليا، ولكن الديوان هو الذي يرشح الموظفين..

وكانت القاهرة تعج بصغار المستبدين الذين يتخذ كل منهم حرساً خاصاً وتمتليء بالأحزاب السرية والعلنية، ويسعى كل منهم لاسقاط غرمائه وأن يكون الحكم في يده ويضيف: «قد يظن البعض أن الأمن حظه ضئيل بين الجموع الغفيرة التي تسير في الشوارع الضيقة، والحقيقة إننا لم نسمع عن حوادث سرقة وقتل تزيد عن تلك التي تحدث في أي مدينة أوروبية كبيرة...».

ويتحدث عما نصطلح عليه اليوم بالمؤسسات الديمقراطية ويقول: «لكل حرفة شيخها الذي يعرف كل أهل الحرفة، وحتى العاهرات واللصوص، فإذا تعرض أحد للسرقة يتوجه إلى شيخ اللصوص، فيعيد إليه ما سرق منه، لقاء مكافأة سخية في أغلب الأحيان» ويتحدث عن الرقابة على الحرف والأسواق فيقول: «يذهب المحتسب ليلاً ونهاراً ومعه حاشية كبيرة إلى الأحياء، ويتأكدون من صحة ومقاييس وأوزان البضائع المعروضة في السوق

وأسعارها، ويظل الخوف الدائم من المباغتة يلزم أصحاب الأفكار الشريرة حدودهم» . .

وتسهم الأبواب العديدة على مداخل الأحياء المنفصلة، وعلى الطرق الرئيسية في ضمان أمن الأهالي، وعندما ينشب صراع بين الكبار في القاهرة، سرعان ما تغلق الأبواب ويحال بين عامة الشعب وبين القوى المتصارعة .

ويتعجب نيبور عندما لا يجد لدى المصريين صحفاً تصدر تعبر عن الرأي العام في البلاد!!

الشرق والغرب

وأهم ما نقله نيبور ضمن مشاهداته وملاحظاته ما يعيشه الشرق من استشعار للخطر القادم من الغرب في هذه المرحلة المبكرة، ويسجل تلك اللحظة النادرة للقاء بين الشرق والغرب، وكأنه لقاء في وسط منحدر، الشرق يهبط من القمة والغرب في حالة صعود إليها، أبناء الشرق يجمعون قواهم لوقف التدهور والاستجابة للتحدي الذي يمثله الغرب وتقعدهم المنازعات الداخلية والفرقة، والأوضاع السياسية التي تحافظ عليها الدولة العثمانية والانعكاسات القائمة في ميزان القوى الدولي!!

هذه هي اللحظة التي نلمحها متفرقة في رحلة نيبور إلى الشرق، فما أيسر أن تعثر لدى المؤرخين على قصة صعود وانتصار

حضارة، وما أصعب أن تعثر على الطرق التي تؤدي للتردي، والتي تلقي الضوء على دروب الاضمحلال. .

إن أهمية ملاحظاته أنها جاءت في المرحلة السابقة على الغزو الأوروبي يقول في مقدمة كتابه «فرحت عندما وجدت العرب بشراً كالأمم المتحضرة!»

ويصف حالة التوجس والعداء للأوروبيين في مجموعة مشاهد يقول: «لا يسمح للأوروبيين بركوب الحمير في القاهرة، وعليهم إذا ركبوها أن ينزلوا منها إذا أقبل عليهم أحد البكوات من وجهاء القاهرة فما ان يظهر أحدهم على صهوة جواده، يتقدمه أحد اتباعه ممسكاً هراوته ويتصدى لأي أجنبي يظل راكباً حماره فيأمره بالنزول، فإذا لم يفعل صب عليه جام غضبه،وقد تحول تاجر فرنسي إلى قعيد أمام موقف مشابه، وكنت في البداية أركب حماري يتقدمني انكشاري وخلفي خادمي، وكانا يظلان على حماريهما جالسين بينما يطلب مني النزول، ولهذا آثرت أن أسير على قدمي تجنباً لهذه المهانة».

وحتى القناصل لا يركبون الجياد إلا عند ذهابهم للباشا، وإذا ساروا في الطريق سمعوا ألفاظ السب واللعن يوجهها إليهم العامة. . ».

وأذا صحبناه خلال رحلة بالمركب من رشيد إلى القاهرة نجد «أن البحارة لم يرضوا ذكر أسماء القرى التي نمر عليها، كما جرت

العادة أن تضيء المركب التي تحمل أوروبيين مصباحاً أثناء الليل لتنبه الجميع إلى وجود الغرباء. . ».

ويذكر أيضاً «أن دمياط ليس بها تاجر أوروبي واحد فقد كان للفرنسيين فيما مضى قنصل وعدد من التجار وأشاع الأهالي أنهم لاحظوا أن الأوروبيين مالوا إلى نساء دمياط ميلاً مفرطاً، فقتلوهم جميعاً، فلم يعد يسمح لأحد من الفرنسيين أن ينزل المدينة حتى البحارة أنفسهم ومن له أعمال في دمياط أصبح ينجزها عن طريق وكيل» ويضيف «إن أهل دمياط ما زالت تحمل ذاكرتهم الحروب الصليبية فيعادون الأوروبيين جميعاً عداوة كبيرة وقد ارتدينا الملابس التركية لتجنب غضب الأهالي وحنقهم. . »

نهب الآثار

ومنذ رحلة نيبور وعمليات نهب الآثار وجمع المخطوطات مستمرة، ويلقي الضوء على فصل من هذه العمليات عندما يكشف دور اليهود في تلك العمليات، يقول «إن إرسال الموميات من الاسكندرية إلى أوروبا أمر شاق جداً، بعد أن منع الأتراك خروجها؛ ويعتبرون أن حرص الأوروبيين على نقل الجثث نوع من العبث بالموتى ولكن بعد أن أصبح عمال الجمارك في الاسكندرية من اليهود لم يعد إخراج جثث الموتى وإرسالها على سفن إيطالية أمراً صعباً، ولقد تمكنا من الوصول في أمان ببضعة صناديق بها موميات إلى سطح السفينة».

ويلاحظ أنه أطلق على نفسه اسم الشيخ عبد الله في كل من الحجاز والبصرة لكي يتكمن من القيام بمهمته.

عمار القاهرة

بعد أن استعرض نيبور تنظيمات الديوان والحرف والتنظيمات الاجتماعية المختلفة وصف عمار القاهرة وتحضر أهلها، فحكام مصر وأغنياؤها لا يقلون في اهتمامهم بالأوقاف الدينية عن سلاطين القسطنطينية، ويفوقونهم كرماً وعطاء، حتى أن شيخاً فقيراً استطاع أن يتنقل عاماً كاملاً من مسجد إلى آخر وينال الطعام والشراب والمرقد، ويدهشه العناية بالمرستان ـ مستشفى الأمراض العصبية ـ والذي تخصص له أموال كثيرة لرعايته؛ ويستخدم الموسيقى لعلاج مرضاه، كما يقدم وصفاً شيقاً للخانات والوكالات وعدد الحمامات العمومية ويصفها بأنها إذا لم تكن جميلة من الخارج فهي جميلة وفسيحة ونظيفة من الداخل أرضيتها مكسوة بالرخام الثمين، ويتوقف طويلاً أمام السبيل بروعة تصميمه ودوره في تقديم الماء للعطشى العابرين، ويصف البرك وخاصة بركة الفيل التي تقوم حولها الحدائق والمروج ويسكن حولها الكثير من الوجهاء والأعيان.

وينتقل إلى أمسيات القاهرة وفنون وتسلية أهلها، الموالد التي يلهو خلالها الناس في ساحة بجوار المسجد بعد أن يسير الموكب ليلاً والأهالي يحملون القناديل حول الألعاب المختلفة. .

وعلى دارسي تاريخ المسرح العربي أن يرجعوا إلى رحلة نيبور بوصفه شاهد عيان يأتي صوته من النصف الثاني من القرن الثامن عشر، والذي روى ما شاهده من أعمال مسرحية متكاملة، وفرق تجوب القرى وتقدم أعمالها وخاصة أن الرأي السائد في الدراسات المسرحية الأوروبية وعند الكثيرين من الدارسين العرب، أن الدراما ليست من الفنون العربية، فيقول الدكتور أحمد الحوفي: «لم يكن في الأدب العربي منذ نشأته وحتى نهاية القرن الثامن عشر أدب مسرحي. . .».

ويجيب الدكتور طه حسين على سؤال لماذا لم يعرف الأدب العربي المسرح؟ بقوله: «أن السبب يعود إلى اختفاء الأدب المسرحي اليوناني حين كان العرب يترجمون الأدب المسرحي اليونانية، ونجد ابن سينا يسمي التراجيديا المرح ويسمي الكوميديا الهجاء. . .».

أما نيبور فيقول: «لا يتوقع الأوروبي أن يشاهد في مصر مسرحيات، ولكن في مصر فرق تمثيلية كبيرة، يدل منظرهم على أنهم لا يربحون سوى القليل، ويأتون إلى بيت كل من يستطيع دفع أجورهم، ويتخذون من الفناء الواسع - في البيت الشرقي - مسرحاً، يضعون في ركن منه ساتراً يغيرون وراءه ملابسهم، ولكن بعض الأوربيين الذين قضوا في مصر سنوات لم يروا قط

تمثيلية عربية، فاتفقنا في أحد الأمسيات مع هؤلاء الممثلين على أن يأتوا إلى بيت إيطالي متزوج ويشاهدوا عرض الفرقة، ولكن لم تكن الموسيقى ولا الممثلين على ذوقنا، ولم أكن أفهم ما يكفي من اللغة العربية، وكان الدور الرئيسي فيها لاعرابية، قام بدورها رجل في ثياب النساء، وبذل جهداً فاشلاً في تغطية لحيته الكثة، وكانت الأعرابية تحتال على المارة من الأوربيين حتى يدخلوا خيمتها، ثم تجرد الأجنبي من ثروته، وتطرده شر طرده، ونهبت بهذه الصورة العديد، وبدا عليها أنها تتأهب لنهب طائفة أخرى، فإذا بأحد التجار الفرنسيين يضيق بالمسرحية، ويعبر عن استهجانه وعدم رغبته في مشاهدتها، فأمروا الممثلين بالتوقف قبل أن تصل المسرحية إلى منتصفها . . .»

انتهت شهادة نيبور، وبقي غياب النصوص المسرحية في هذه الفترة والتي أن وجدت لأثرت تاريخ المسرح العربي.

إن القارىء سيجد في هذا الكتاب المتعة والمنفعة معاً، تلك المتعة التي لا يجدها سوى في الأعمال الجادة، ولقد ترجم الدكتور مصطفى ماهر الجانب الخاص بمصر وما زالت بقية رحلته لم تترجم إلى اللغة العربية وصعبة المنال للقارىء العربي.

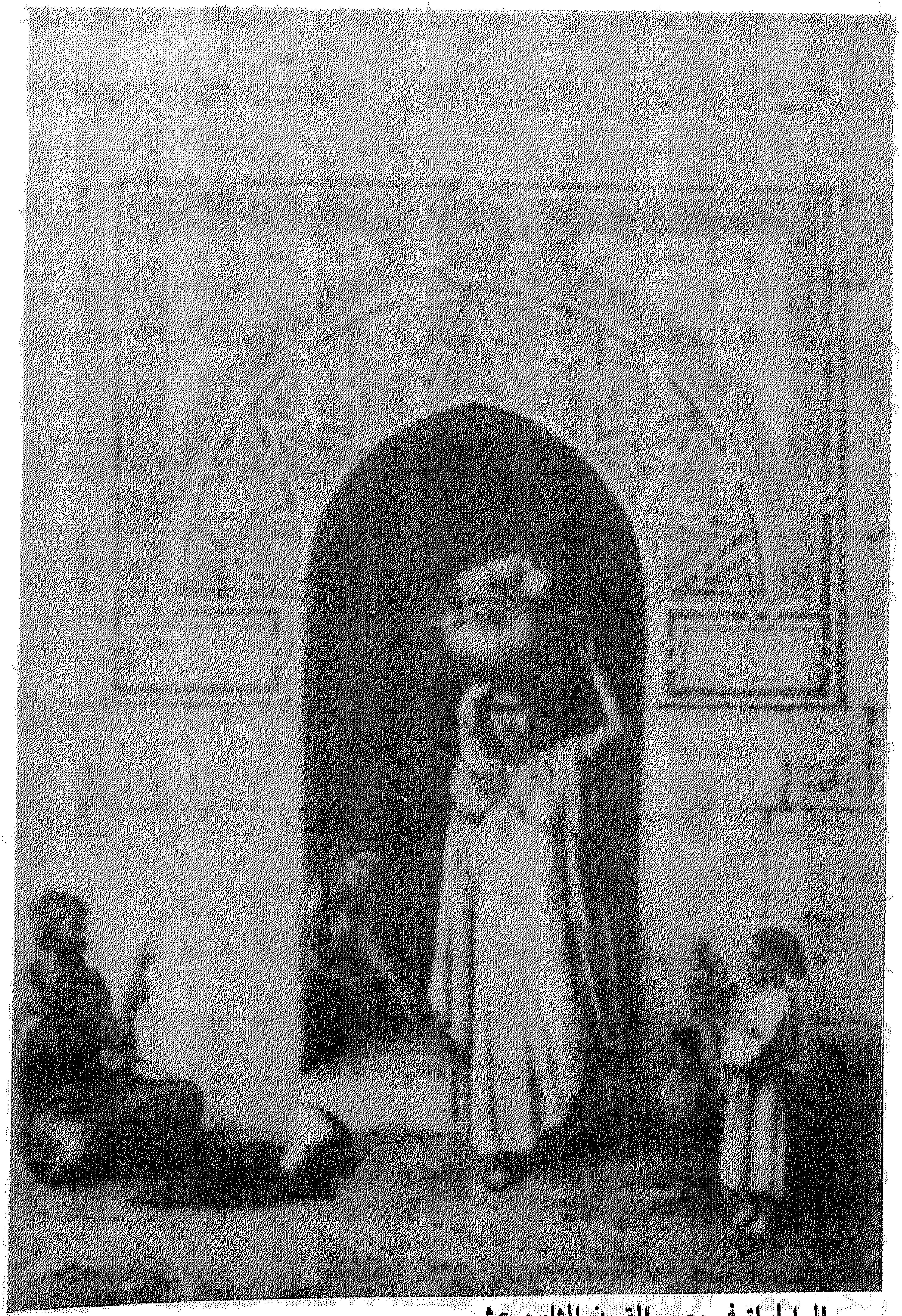

معالم الحياة في مصر القرن الثامن عشر

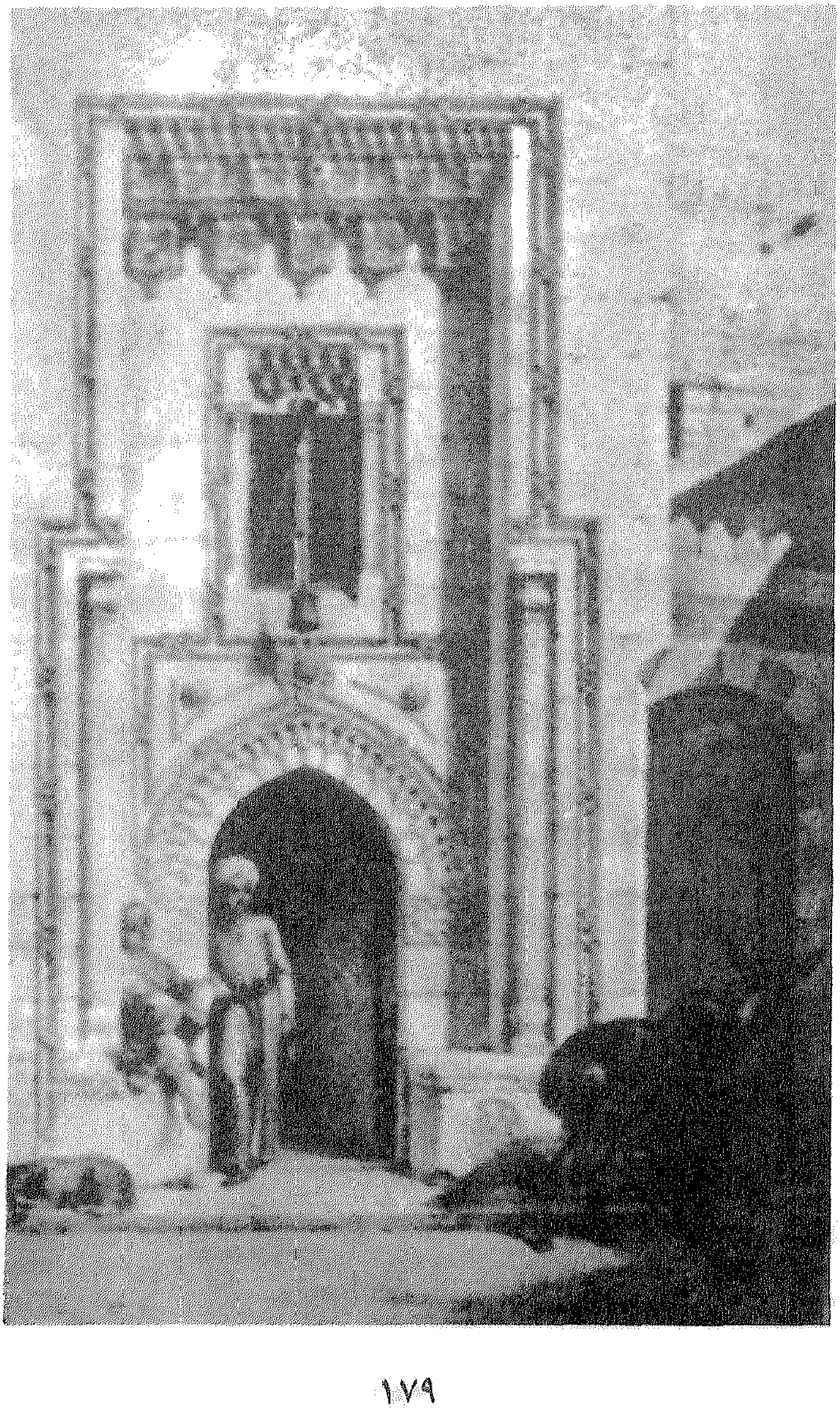

الغرب
بعيون شرقية

كيف رأس سفير المغرب
أسبانيا في القرن الثامن عشر؟

تعودنا أن نقرأ عن الشرق الإسلامي بأقلام غربية، وهذه المرة نقرأ عن احدى الدول الغربية بعيون شرقية، عندما زارها السفير المغربي ابن عثمان المكناسي عام ١٧٧٩م.

ولم يلحظ ابن عثمان خلال رحلته سوى الطغيان والفجور، ويبدو هذا منطقياً إذا تأملنا الظروف التي تمت خلالها سفارته، وعلى عكسه يصل رفاعة رافع الطهطاوي إلى نتائج مغايرة خلال رحلته العلمية إلى باريس.

فيدعو إلى الاستفادة من التقدم العلمي ولا يرى في ذلك تعديداً للهوية الوطنية.

شهدت العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي، خلال الأربعة قرون الماضية. حلقات متتابعة من الصراع والتوتر والمعارك الدامية والخاسرة، مما دفع الشرق إلى ايثار السلامة ورفض الاستفادة من التقدم العلمي المذهل الذي تحقق في الغرب!

وكلما ارتفعت صيحة تطالب بنقل المعرفة الغربية، حال دون الاستجابة لها استمرار الصراع الذي تحول في موجته الأخيرة إلى الظاهرة الاستعمارية وما يصاحبها من سيطرة اقتصادية وهيمنة

عسكرية. . مما باعد بين الشرق والتفاعل الخلاق مع مستحدثات العصر، حتى انهارت المقاومة في الكثير من أنحاء الشرق، وتحولت بلدانه إلى مجرد مستهلك لمنتجات وأفكار الغرب، مكتفية بالقشور، بعيداً عن التفاعل الخلاق، مما ادى إلى استمرار التبعية العمياء، !

واستمرت تلك الحالة كإحدى العقبات الرئيسية التي تحول دون أن تتكامل العناصر الثقافية والحضارية في دول الشرق، التي لم تعد الحياة الفكرية فيه كما كانت زاخرة بكل ما انتجه العقل البشري من علوم وآلات، وبكل ما انتجه الوجدان البشري من فنون وآداب.

وأخذ البعض يمسكون بمصباح ديوجين يفتشون وسط الشمس الساطعة عن وسائل التقدم المفقود، وتعثرت الخطى بين الذين يطالبون بأن تكون مصر قطعة من أوروبا، كما كانت صيحة الخديوي إسماعيل ـ وبين الذين يطالبون باغلاق الأبواب. تجنباً للغزو الفكري!.

وغاب في ظل ذلك جديد العصر ورحيق التراث، معاً، وأصبحت أعلى الأصوات أصوات المقلدين، سواء كان هذا التقليد لمستحدثات العصر أو لأمهات الكتب القديمة. .

رغم أنه كان من الأولى مع تأجج الصراع وفي ظل المعارك التي يسمع خلالها قعقعة السلاح، أن تكون المهمة الأولى التي

تشغل بال الجميع، هي السعي لاكتشاف سر السلاح الذي نواجهه ثم نقله وتطويره. .

ومما لا ريب فيه أن الذي يفرق بلداً متقدماً وآخر متخلفاً، أن البلد المتقدم أخذ بأسباب العلم وأساليب تطبيقه، فالعلم الحديث هو تكتيف للمعارف البشرية طوال التاريخ، وأن البلد المتخلف هو البلد الذي يكتفي باستهلاك ما انتجه الآخرون سواء الأجداد أو الأعراب. .

وليس صحيحاً أن الشرق أمامه اختيار، فليس أمامه سوى طريق واحد أن يستوعب العلوم والصناعات وأن يتمثلها وتصبح جزءاً من تجربته المعاصرة. .

تلاحقت على ذهني هذه الأفكار عندما قرأت «الأكسير في فكاك الأسير» لكاتبه محمد بن عثمان المكناسي والذي يروي مشاهداته في أسانيا عام ١٧٧٩م . وتهدف سفارته السعي إلى فك أسرى المسلمين لدى الاسبان في أحد فصول الصراع بين الشرق والغرب، يروي مشاهداته للغرب بعيون شرقية، وكانت هذه السفارة ضائعة وسط آلاف المخطوطات، وعثر عليها أخيراً في الخزانة الملكية المغربية، وقام بنشرها وتقديمها الأستاذ محمد الفاسي، وهي رحلة بالغة الدلالة لما تلقيه من الأضواء على سبب أحجام الشرق عن الاستفادة من الغرب، وتنقل صورة تبض بالحياة للعلاقات بين الشرق والغرب.

ولعل تأمل هذه العلاقات في مراحل مختلفة ومن مواقع متباينة يساهم في تجاوز تلك الأزدواجية، ويفسر سبب ضياع صوت الذين حصلوا على الثقافة الغربية وحدها، ولا يصل صوتهم إلى كل الآذان، ولماذا يصبح المتحدث في واد والمستمعون في واد آخر. .

وهذا الكتاب جزء من أدب الرحلات في التراث العربي الذي يحتل مكانة بارزة في المكتبة العربية، والذي يكاد يكون المصدر الوحيد للكثير من الأصقاع في العصور الوسطى ومن بينها الغرب الأوروبي، فرحلة ابن فضلان مثلاً هي المرجع الرئيسي الذي يكشف حياة الدول الاسكندنافية في القرون الوسطى. . وكتب بروتز مؤرخ الحروب الصليبية، يقول: «ليس في وسع الأوروبي أن يقدم مثالاً أفضل من المؤلفات العربية، والمقارنة تكشف دون تردد أين يكمن الفهم والاحساس التاريخي والوعي السياسي، والذوق في الشكل، والفن في العرض».

وتوجد سلسلة متصلة الحلقات من الدراسات الشرقية عن الغرب، ويرصدها برنارد لويس من القرن التاسع عندما اتسعت المعرفة بالغرب حتى شملت الجزر البريطانية وايرلندا واسكندنافية في بداية القرن العاشر على أيدي ابن الفقيه والمسعودي، وظهر وصف هارون بن يحيى لبلاد الفرنجة ووصف روما وصفاً دقيقاً، كما كتب إبراهيم بن يعقوب عن الايرلنديين وعاداتهم وملابسهم.

وبالنسبة للغرب الإسلامي فقد مر بتجربة خاصة. . مع

الخروج العربي من الأندلس، عندما كانت معرفة المسلمين بأوروبا أكثر دقة، ففي كتابات الادريسي جمع العديد من المعلومات خلال رحلاته، ثم تزايد الاهتمام في القرن السابع عشر حين ظهرت دراسات عن تاريخ ملوك الفرنجة.

وتأتي رحلة ابن عثمان في القرن الثامن عشر وتصف اسبانيا وصفاً شيقاً منذ بدء سفارته حتى عودته. بعد أن رحل إليها مبعوثاً من إمام المغرب إلى ملك الاسبان، كان يهدف خلال بعثته إلى تجديد الصلح بين المغرب واسبانيا، والعمل على اطلاق سراح اسرى المسلمين الجزائريين في اسبانيا، وقد كللت مهمته بالنجاح. فوصف رحلته ومعالم الحياة في اسبانيا، وتناول الحجر والبشر، ووصف الرقص والتمثيل ومصارعة الثيران وتوقف عند مظاهر العلم والفن واهتم بالمتاحف والقصور والمنتزهات والمكتبات العامة، ولم يفته وصف الطبيعة الساحرة من جبال وأنهار ووديان وبحيرات وغابات

ومن الطبيعي أن يجد نفسه في بؤرة الصراع بين الشرق والغرب، وخاصة عندما يتوقف أمام الآثار الاسلامية في الأندلس، ويتأسى على تاريخها، وعندما يتحدث عن العائلات الاسبانية التي لها أقارب من المسلمين بالمغرب.

سبته المحطة الأولى

وكانت محطته الأولى والمدخل إلى عالم الغرب، كفيلة وحدها

أن تملأ نفسه بالمرارة، عندما بدأ رحلته بدخوله إلى سبته المطلة على مضيق جبل طارق والخاضعة للاحتلال الاسباني، والتي ما زالت خاضعة لهذا الاحتلال حتى اليوم، وهي تقع على رأس المثلث المكون من ثلاث مدن تحكم جبل طارق هي طنجة وسبته وجبل طارق، والتي تتوزع السيطرة فيها على كل من بريطانيا واسبانيا والمغرب.

ومدينة سبته تحكي أحد فصول الصراع بين الشرق والغرب، وتبين أهمية المغرب كبلد تخوم وأحد الثغور في مواجهة الغرب، وشهدت سبته نتائج التفوق الأيبيري والخروج من الأندلس، ثم جاءت الهجمة الغربية الثانية بعد انتهاء الحملات الصليبية بالفشل، وعقب الفتوحات العثمانية في شرق أوروبا عندما أطلق البابا نداءاته للهجوم على الموانىء المغربية.

ولا بد أن ابن عثمان وهو يدخل المدينة الأسيرة قد جال بخاطره ما سجله التاريخ من اطلاق كلمة «الاسترداد» على «استيلاء» الأسبان على المدينة المغربية، بعد أن كانت أهم ميناء بحري للمغرب، وتمضي الأيام وتنصرف اسبانيا إلى الشئون الاوروبية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، فيمر الصراع بهدنة مؤقتة وهي المرحلة التي تشهد رحلة ابن عثمان. .

ويصف ابن عثمان وصوله إلى سبته والمظاهر العسكرية التي شاهدها بقوله: «نزلنا بظاهر سبته وخرج الترجمان وطائفة من

عسكرهم من موضع تحت الأرض من السور بعد أن حفروا تحت الأرض حفيراً داخل سورهم، وسقفوا الأخدود بالقبو وجعلوا فيه طيقاناً كثيرة لادخال الضوء، واجتزنا الباب الأول ثم الثاني حتى وصلنا إلى باب المدينة. . فوجدنا حفرة متسعة وعميقة متصلة بالبحر، وتحولت سبته إلى جزيرة يحيطها البحر من كل جانب، وأقاموا على الحفرة قنطرة لها قوسان، وجعلوا مكان القوس الثالث قنطرة من الخشب في رأسها سلسلتان، يتصل باب المدينة بالقنطرة والسلسلتين».

أليست هذه البداية كفيلة بأن تفقد صاحبها امكانيات التفاعل الطبيعي مع ما حوله، وأنه من التعسف أن يبحث صاحبها عن القيم التي تقف وراء عمران الغرب؟ ولنمضي معه في جولته يقول عند وصوله إلى أشبيلية: «نزلنا في دار بديعة الشكل غريبة المثل وهي دار العابدين من المسلمين رحمهم الله، وهي ذات صنائع متقنة ومرائي مستحسنة، مفروشة بالرخام الأبيض، ولها من سواري الرخام أربع ومائة سارية اثنتان وخمسون في أسقفها ومثلها في الطابق الأعلى، وسطها نافورة تدفع الماء في الجو. . وأشبيلية مدينة كبيرة بهية المنظر كثيرة الآثار بما فيها من البناءات الفائقة والمنارة الرائعة وسقف بيوتها من القرميد الأبيض، وأقيمت على أرض فسيحة وفاقت أشبيلية بموقعها عند الوادي جميع البلدان».

ويصف داراً. . «معدة لتعليم الصبية علم البحار، وبها قيم

معين من قبل «الطاغية» يجتمع عنده في الدار اليتامى المهملون وأبناء المستضعفين مع أولاد الأكابر، وأول ما يتعلم الصبيان الكتابة والحساب، وبالدار سفينة بقلوعها وأحبالها ومدافعها، يتعلم فيها الصبية أمور البحر ويتدربون على القوس والبوصلة وخريطة العالم. .

ويصف داراً أخرى«معدة لصنع المدافع الكبار والمهارس وبها من الحركات والآلات ما لا يمكن وصفه». ويتابع خلال جولته ما يتعلق بالحرب، يقول: «توجهت مع أعيان البلد إلى موضع يقال له الطري ـ أي البرج ـ فطلعنا إليه، فإذا به مرآة عظيمة تنتصب على قوائم، يراقب الموكل بها المراكب التي تظهر في عرض البحر، فيراها عن بعد كأنها أمامه، فيعرف اتجاهها وعدد مدافعها وجنسيتها، وان كانت معادية يستعدون للقائها».

فأهم ما يلفت نظره التطور في العتاد الحربي وهذا طبيعي، فأول ما ينقل من حضارة هو النظم العسكريه ومعدات القتال، هذا ما قامت به الدولة العثمانية وما سعى إلى القيام به محمد علي في مصر. .

في مدريد

ولنصحب ابن عثمان إلى عاصمة اسبانيا، إلى مدريد، التي يصفها بأنها مدينة غاية في الكبر وهي حاضرة الحواضر، أقيمت على ربوة، وزادها مدخلها من وادي مانستارس حسناً وبهاء وبهجة

وسناء. وسرنا في سكك متسعة، ورأينا دياراً مرتفعة، ولكل دار سراديب مغلقة بالزاق - الزجاج - وعليها شبابيك من الحديد وأسواقها عامرة مشحونة بأهل الحرف والصنائع والتجارة والبضائع وجل باعتها نساء.

ويلتقي في مدريد بالملك كارلوس الثالث الذي يطلق عليه لفظ الطاغية «عندما تقابلنا مع الطاغية دفعنا له رسالة الإمام المؤيد العلوي الهاشمي وعرف مضمونها وما أشار إليه سيدنا أمير المؤمنين من تسريح أسرى المسلمين، وتلقي الأمر المطاع بالانقياد وأخذ يدبر ما تلقى».

ويؤخذ بقصر الملك كارلوس. . «هي غاية في الحسن وبهاء المنظر، وكلها من الحجارة المنحوتة التي تشبه الرخام، وسقفها من الحجارة. وشاهدت طائراً يقال له الكناليو - الكناري - له حركات يتحرك بها ويخرج الموسيقى وازاءه فتاة تضرب بيدها على أوزان الالحان قلت لأصحاب الدار: هذه الموسيقى ليست من عمل الصور التي رأيتها وإلا لكانت المرأة تحس أصابع يدها الأوتار وكفانا الله بهرجتهم!».

ابحث عن المرأة

ومما يلفت نظر الشرقي عند زيارته لأحد البلاد الغربية، طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، هكذا كان الحال مع ابن عثمان ومع

رفاعة رافع الطهطاوي صاحب أشهر الرحلات إلى باريس في فترة متقاربة مع ابن عثمان . .

ونجد ابن عثمان يقول عند وصوله إلى مدينة خيرز . . «اجتمع بالدار التي نزلنا بها أعيان البلد، وبعد العشاء اجتمع نساء أعيان البلد، فتلكأت في الخروج، فألح علينا الحاكم، فلم أملك سوى اسعافه، فإذا بجمع كثير من النساء قد أظهرن زينتهن بما يناسب، أما في مدينة أسيخه «فقد وردت الضامات نساء الأكابر بقصد السلام، وأحضرن الموسيقى التي لهن اعتناء كبير بها. ورقصن مع أكابر البلد نساء ورجالاً!» ويصف ما يقع في المتنزهات بين الرجال والنساء بقوله: «وهووا من شفا جرف هار إلى بحبوحة الناس وبئس القرار!» ويقول: «اجتمعوا ذات ليلة نساء ورجالاً ورقصت النساء كما هي عاداتهم وترى الرجل جالساً وامرأته أو ابنته ترقص مع أجنبي، ويناجي بعضهم بعضاً. ولا حياء لديهم مع ما هو معلوم بينهم وشائع من الفسق والزنا، ولا يبالون بشيء فقد جبلوا على عدم الغيرة . »

وهنا يتفق ابن عثمان مع الطهطاوي في الموقف من المرأة ويسجل الطهطاوي في رحلته إلى باريس عام ١٨٢٦ تحفظاته على طبيعة العلاقات بين الرجال والنساء ويصف الفرنسيين بقوله: «ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة» . .

ولكن يختلف الطهطاوي عن ابن عثمان، في الكثير من الجوانب، فلم تكن رحلته تقريراً دبلوماسياً خلال زيارة بلد بين حربين، وإنما كانت رحلة علمية لاكتساب معارف الغرب وعلومه، ليس لدى صاحبها شعور بالنقص أو الاستعلاء، فقد فشلت الحروب الصليبية، وسجن لويس التاسع ملك فرنسا في المنصوره أسيراً واندحرت الحملة الفرنسية. . لذلك لم يمنعه شيء من البحث عن سر تقدم الغرب، وكتب يقول: «إذا كانت البلاد الافرنجية قد بلغت اقصى مراتب البراعة في العلوم الرياضية والطبيعية وإذا كانت البلاد الاسلامية قد برعت في العلوم الشرعية والعمل بها، فإنها في حاجة إلى كسب ما لا تعرفه، وجلب ما تجهل صنعه».

فكان لقاء الشرق والغرب عند الطهطاوي لقاء وفاق ولقاء ابن عثمان لقاء عنيفاً دامياً. قدم الطهطاوي العلوم والفنون والصناعات ولم يجد في ذلك مع ما يتعارض مع انتمائه وولائه وهويته، فيلتقي الشرق والغرب في عقله ووجدانه في ميزان دقيق.

المسرح والمتحف

ونعود إلى جولة ابن عثمان، وكيف تلقى الفنون المختلفة مثل المسرح والمتاحف والمكتبات العامة، ونقرأ تعليقه عليها عندما يدعى لزيارة المسرح في سانتا ماريا يتأبى ويرفض «ومن جملة الأكرام هيئوا داراً بالقرب منا للفرجة تسمى الكميديه وطلبوا إلينا التوجه إليها فابيت، فورد علينا من له معرفة سابقة بنا، وقال لقد صنعوا هذه

الفرجة من أجلكم وبقصد أكرامكم، وانفقوا عليها مالاً كثيراً وليس هذا وقت الفرجة، فذهبت فإذا بدار عظيمة من أربعة طوابق، وأوقدوا فيها من الشمع ما لا يعد ولا يحصى، وجلس أصحاب آلات الطرب والموسيقى في سفلى الدار، وهيئوا لنا موضعاً مقابلاً للموضع الذي يكون فيه لعبهم وطربهم، وشاهدنا من العجب في تلك الدار ما لا يمكن وصفه من أنواع التصاوير والنبات والحيوانات التي يخيل للناظر إليها كأنها قائمة . .

ويصف العديد من المتاحف، وفي مدريد يزور متحفاً للعتاد الحربي، «دار كبيرة يقال لها دار العدة فيها من آلات حرب الأقدمين شيء كثير من الدروع والسيوف، وقد شاهدت شكل مكحلة فيها بارود يكفي ثماني عشرة عمارة، وينتقل إلى وصف نظام الفرسان وصفاً دقيقاً مفصلاً . .

ويسأل أكابر البلد في كل مكان يحل فيه، هل بقي أثر من آثار المسلمين، ويعثر على دنانير وريال صغير وفلوس مكتوب عليها بعض آيات قرآنية واسم الجلالة واسم النبي صلى الله عليه وسلم، «فأعطوني بعضاً منها، وامتنعوا عن قبض الثمن، فلهم اعتناء كبير بها يتوارثونها سلفاً عن خلف، وشاهدت سكيناً راودت صاحبها على بيعها وأعطيته فيها مائة مثقال فامتنع» . .

ويدهشه كيف يقدم ملك اسبانيا الطعام الذي يعده بنفسه للمساكين في عيد الفصح، عندما يدعو اثني عشر رجلاً من الفقراء

ويدخلهم بيته ويقوم على خدمتهم، يناولهم الطعام بيده ويسقيهم الخمر، فإذا فرغوا من الطعام والشراب غسل الطاغية بيده أقدامهم وأخيراً يعطيهم كسوة ودراهم . .

كما يدهشه اهتمام الملك بالصناعة ويصف الدار التي يصنع فيها البللور بعد أن جلب الملك إليها معلمي هذه الصنعة، وكل ما يصنع فيها يقدم للطاغية، وله دار معدة لبيع ذلك بثمن معلوم، ويخسر الملك في كل سنة نحو خمسين عشر ألف ريال حرصاً منه على استمرار هذه الصنعة في بلاده، ويصف أيضاً صناعة الحرير والآلات الكبيرة ويعلق قائلاً: «من الغريب ضبط هؤلاء الكفرة وتبصرهم بأمور دنياهم، عندما جمعوا في هذه الدار من الصبيان اليتامى والأرامل عدداً كبيراً . . يتعلمون الصنعة والطاغية ينفق عليهم في ملبسهم وسائر مؤنهم!».

مكتبة الاسكوريال

ويصف مكتبة الاسكوريال بأنها احدى عجائب الدنيا، وهي من أغرب ما يحكى في جمال البنيان ووسطها قبة في غاية العلو، وكلها مفروشة بالرخام، وبها الذخائر النفيسة والأحجار الثمينة والصور الذهبية والفضية . .

ورأينا في خزانة كتبهم من البسط المنضدة بالجوهر الثمين عدداً كثيراً، ورأينا حجراً من الماس زنته نحو رطلين أو ثلاثة، كما شاهدنا خزانة كبيرة في غاية النظافة والصون جعلوا بها كتب

المسلمين التي بقيت، وهي عندهم في غاية الحفظ لا يمكن لأحد أن يدخل إلى تلك الخزانة كائناً من كان، وتضم ألفاً وثماني مائة سفر، فيها نسختان من المصحف الكريم وعدة تفاسير والعديد من كتب الطب، وقد طالعت ما سمح به الوقت، وخرجت من الخزانة بعد أن اشتعل فؤادي بنار الأحزان، ويا ليتني لم أرها . .

ويعلق ناشر الكتاب الأستاذ محمد الفاسي على وجود هذه المخطوطات العربية في مكتبة الاسكوريال بعد أوامر محاكم التفتيش بحرق كل المخطوطات والكتب العربية، بأن هذه الكتب كانت لمنصور الذهبي في أيام السعديين، وعندما اضطر ابنه للفرار، كان أول ما فكر فيه جمع حزانة كتبه في صناديق أرسلها إلى أسفى لتشحن على سفينة فرنسية إلى أحد مراسي سوس، وطال انتظار السفينة ولم يأت الذهبي فأقلعت بشحنتها الثمينة وهاجم السفينة قرصان اسباني واستولى على الكتب وقدمها هدية لملك اسبانيا، وهي المودعة في الاسكوريال والقائمة حتى اليوم . .

وأخيراً لعل كتاب ابن عثمان يلقي الضوء على قضية قديمة جديدة، كان ينبغي تجاوزها منذ زمن بعيد، وهي التراوح في موقف الشرق الإسلامي بين المقاومة ورفض ما يمكن أن يساهم في تقدمه ورقيه. والذي يعقبه التقليد الأعمى الذي يكتفي بدور المستهلك لما يصنع في الغرب.

وهي تقتضي استمرار الدعوة للوصول إلى نقطة التفاعل الخلاق الذي يحافظ على الهوية ويضيف إلى الفكر والتجربة الإنسانية . .

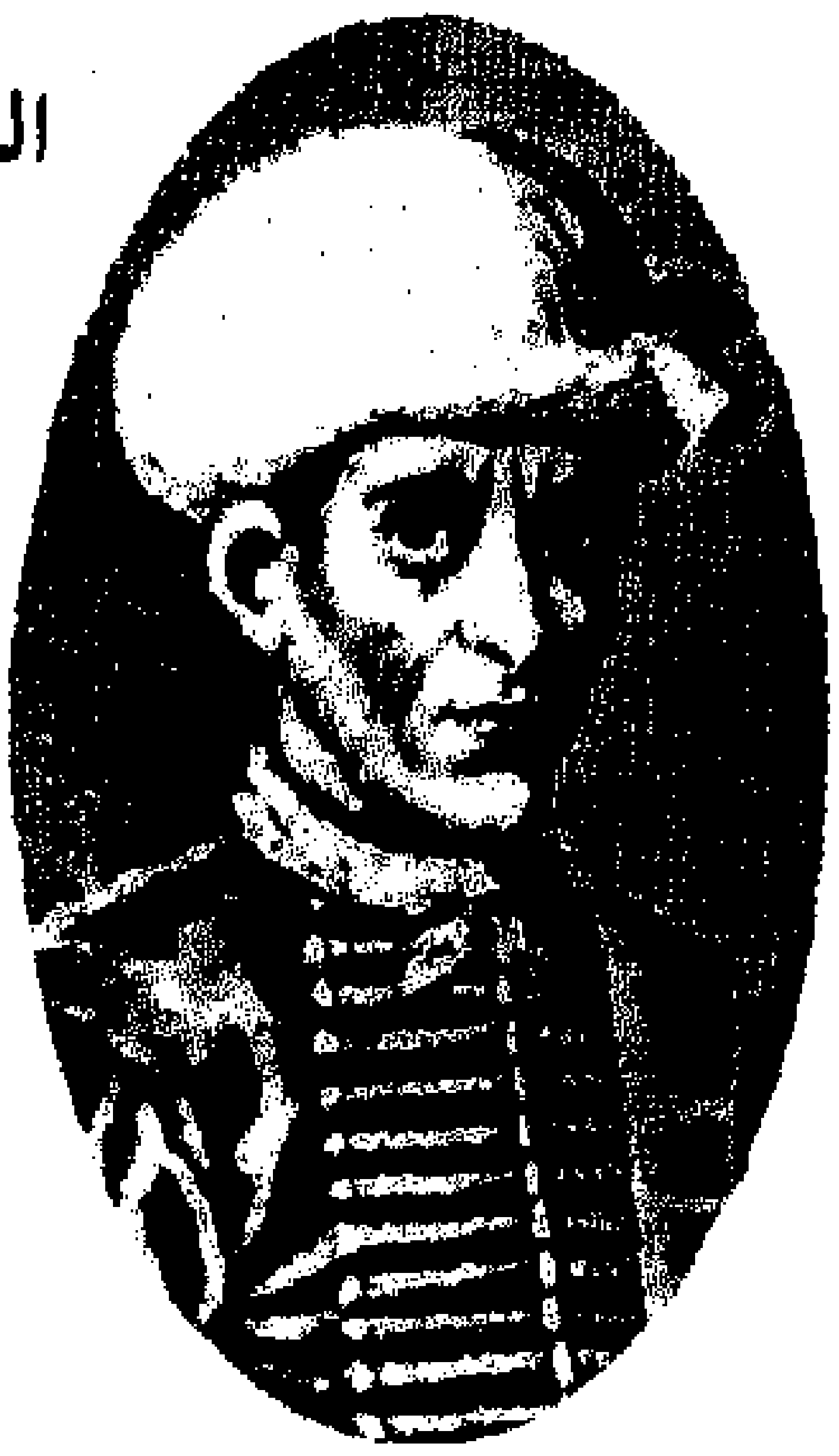

السلطان أحمد المنصور

رسالة الى الملكة إليزابث الأولى ملكة بريطانيا

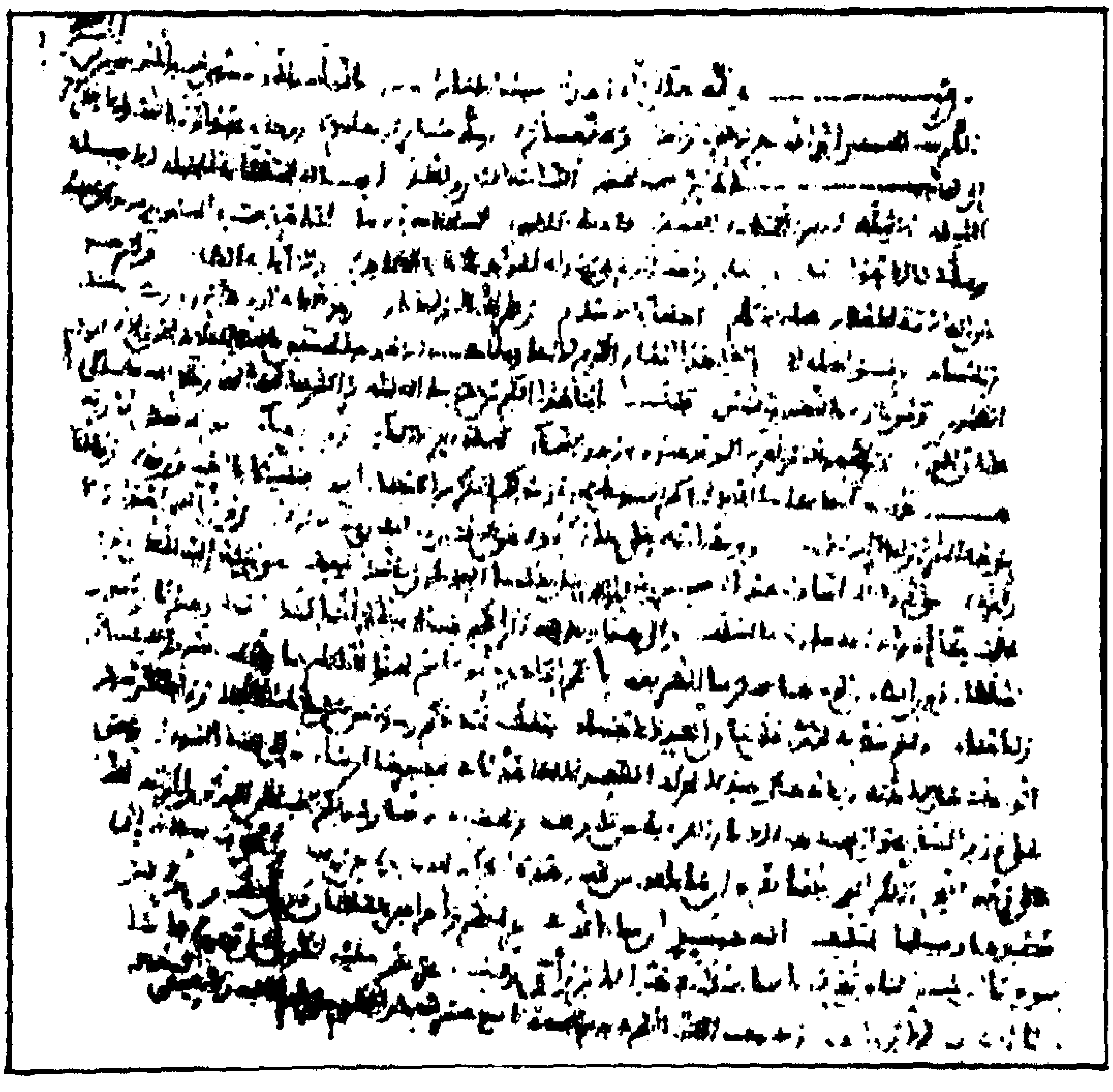

فهرس الكتاب

مقدمة ٥
الشريف أحمد الريسوني ١١
العمليات العسكرية ضد العصاة واحتلال تازاروت ٣٣
اورطه مصرية سودانية تحارب في المكسيك ٤١
مأساة أميرة من عمان ٥٥
قصة أول معاهدة عربية ـ أميركية ٨٣
كيف انتفض العرب دفاعاً عن مصر ١٠٥
دمشق. . . من مقعد حلاق ١٢٥
رحلة الى الشرق ١٦٣
الغرب بعيون شرقية ١٨١

مطابع الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

97
7

4.00